المقتطف ٧

الجزء الرابع من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ ابريل سنة ١٩٤٩ ٢ جمادى الثانية سنة ١٣٦٨

# طوفان القدم

## صراع بين اللاَّهوت والعلم
## إزاء علم الجيولوجيا
## — ٢ —

### جهد لاهوتي
### لكبح النظريات العلمية

انتعاش الاساليب العلمية — بافون ومعهد السربون — مقالة بيرنجر في الحفريات — معارضة البروتستانت للجيولوجيا الحديثة — أعمال بارنث ووِيستون وويسلي وواطسون وأرنولد وكوكبرن وغيرهم .

لم يكن من المستطاع أن يُغشَّى على الاسلوب العلمي فيزول ويندثر بتة . فعند بداية القرن السابع عشر نفث ده كلاف وبيتو وده فيلُّون في الأسلوب العلمي نسمة الحياة ثانية . ولكن المعهد اللاهوتي في باريس قد بادر إلى الوقوف في وجه الاتجاه العلمي باعتبار انه منابذ للأسفار المقدسة ، وأعدمت المقالات التي تخالف تلك الأسفار ، ونفي مؤلفوها من باريس ، وحظر عليهم أن يعيشوا في المدن أو يغشو الاجتماعات العامة .

أما الآخذون بناصر العلم ، ولو انهم كُبحوا إلى حين ، فقد عملوا في هدوء ،

ولاسيما في ايطاليا . ومضى على ذلك نصف قرن حين تقدم « إستينو » الدنمركي ، و « إسكِلاَّ » الايطالي خطوات أخرى في الطريق المستقيم . وبالرغم من أنهم وأنصارهم قد عملوا جاهدين في سبيل أن يرموا الحوت الأعظم بسهم ، فداوروا وخادعوا حتى استطاعوا أن يضفوا على عبارات سفر التكوين وأساطيره صورة غامضة من التبجيل اتخذوها دريئة حتى يُضمّنوا أقوالهم حقائق جيولوجية ، مضت بهذا العلم قُدُماً هوناً على هون .

ظلت الروح العلمية في فرنسا بالغة القوة والأثر . وفي أواسط القرن الثامن عشر حاول «بافون» تقرير حقائق جيولوجية بسيطة . ولكن المعهد اللاهوتي في السوربون مدَّ اليه يده فوراً ونحّاه عن مركزه السّامي ، وأجبره على أن يستغفر بذلة وحقارة ، وأن ينشر استغفاره في الناس . وقد تضمن استغفاره العبارات التالية :

„ أعلن أني لم أرْم إلى مخالفة نصوص الكتب المقدسة ، وأعتقد بصحة كل ما تضمنته فيما يختص بالخلق ، سواء أتعلق ذلك بالترتيب الزماني أم بالوقائع . واني لأنبذ كل شيء جاء في كتابي متعلقاً بتكوين الارض ، وعلى الجملة كل ما يحتمل أن يكون منافياً لقصة موسى “

إن هذه الوثيقة المزرية لتذكرنا بعضاضة، تلك التي حُمِل غاليليو على اعلان مثلها قبل مئة سنة من ذلك العهد .

لقد لاحظ أحد عظام الثقات من أهل العصر الحديث أن المذهب الذي اضطر „ بافون “ إلى إنكاره هو من الثبات والحق بحيث يضارع القول بدوران الارض على محورها . وبالرغم من هذا فقد احتاج العلم إلى مئة وخمسين سنة أخرى ليتسنى له أن يقرع بهذا المذهب آذان الناس قرعاً خفيفاً ، في حين مضى المذهب

الكنسي قائماً على أن جميع ”الأشياء التي صنعت قد ظلت كما هي منذ بدء خلق العالم،، وأن القول بأن الأحجار والحفريات قد صنعت قبل ذلك أو بعد البدء في الخلق ، قول منافٍ لنص الكتب المقدسة . وكذلك نرى انه قد حلت محل العلم فكرات لاهوتية حصرت في عبارات طنانة فارغة المعنى ، قضت بأن الحفريات هي ”ألهيات طبيعية،، أو هي ”انعقادات معدنية،، أو هي من ”مخلوقات قوة تكوينية،، أو هي ”مُثُل،، برأها الخالق قبل أن يصمم نهائياً الصورة التي يخلق على غرارها الأشياء .

خلَّف لنا ذلك العصر الذي حلت فيه الآراء اللاهوتية محل الآراء العلمية ونحتها عن عالم المعرفة ، أثراً أقيم تخليداً لذكرى قصتين معاً ، إحداهما مأساة والأخرى أضحوكة . هذا الأثر هو كتاب الأستاذ ”يوهان بيرنجر،، من جامعة ”ورتزبرج،، والطبيب الخاص للأمير الأسقف ، الذي أسماه : ”نماذج الخلق الأولى المطبوعة في الصخور،، (١) ، وأتى فيها على صور مئتي نموذج حجري تشابه بوضوح هيئة الحشرات والدواب . على أن ”بيرنجر،، قد عمد من قبل ، إمعاناً في تمجيد الله ، إلى القول بنظرية ان الحفريات إنما هي ”حجارة من نوع خاص أخفاها مهندس الكون الأعظم للتسلي بها،، . حتى أن بعض تلاميذه قد جنحوا إلى امتحان عقيدته في هذه النظرية التقويَّة امتحاناً مريراً . فراحوا يجبلون من الطين كهيئة حفريات مزوَّرة وخبزوها ، ثم لم يقتصروا فيما زوَّروا على هيئة ضروب مختلفة من النباتات والحشرات والزواحف والأسماك ، بل اصطنعوا نقوشاً عبرانية وكتابات سريانية ، حملت إحداها اسم « القادر » ، ودفنوها في مكانٍ كان من عادة الاستاذ أن يمضي اليه باحثاً عن عينيَّات من الآثار الحفرية .

---

(١) Lithographiae Wirceburgensis Specimen Primum

ولقد كان الفرح الذي أخذ الاستاذ يبرنجر عند ما عثر على هذه البراهين الدامغة الدالة على الاثر المباشر لفعل الله في تصوير الحفريات، عظيماً فائق التقدير. وأعدّ لها كتابه فأبهظ في نفقاته وأسرف في إعداده. أليست صفحاته المصوَّرة هي الحد الفاصل المثبت للحقيقة المؤيدة للرأي اللاهوتي، النافي لخيالات العلم؟ وجعل في فاتحة كتابه لوحة في صفحة كاملة لرمز صوِّر بصورة هرم تكوَّنت لبناته من هذه الحفريات وعلى رأسه تربع أميره الذي هو في خدمته، ورمز يشير إلى مجد الله. ولقد كان إيمانه بهذه الاستكشافات من الثبات بحيث لم يمنعه ما ترامى اليه من أخبار المخادعة في ما عثر عليه، من أن ينشر كتابه في الناس. ولقد هوجم وفضح أمره، ولكنه تقدّم إلى الناس بجواب ضمنه ما ضمَّن من سخرية بمهاجميه وازدراء بهم. ولكن تعالي الضحكات التي دوَّت من حوله، أقنعت حتى المؤلف نفسه بما في ركازه العلمي من الخداع والغش. ولقد قيل بأنه أنفق كل ثروته في سبيل الحصول على النسخ التي وزعت من الكتاب، فراحت سدًى، وتناوحت من حوله سخريات منافسيه فمات كسير القلب مندمل الصدر. ولكن الموت نفسه لم ينجه من التعاسة وسوء الحظ. فإن نسخ الطبعة الأولى، وقد باعها إليه خليع متهاون من ورثة أحد الناشرين في ليبزج، سرعان ما أعيد طبعها بعنوان آخر، وما زالت إلى الآن تطلب ويجدُّ في أثرها الراغبون في الاحتفاظ بواحدة منها، لتكون لديهم أثراً خالداً وعنواناً على الحماقة الانسانية.

هذه الفضيحة الكبرى لم تكف للقضاء على الفكرة التي كانت السبب فيها، فإنه بالرغم من أن مستوى التفسيرات اللاهوتيعِلْمِيَّة قد سما وارتفع درجة ما، ظلَّ الاعتقاد بأنَّ الحفريات قد صنعتها يد الله وبثتها في طبقات الارض منذ أيام الخلق ثابتاً راسخاً، هذا بالإضافة إلى القول بأنها خلقت لغرض غامض خفي، ربما

كان لمحاولة امتحان الايمان الانساني .

ومن عجب أن الحرب اللاهوتية إزاء الاسلوب العلمي في البحوث الجيولوجية، كانت في البلاد البروتستانتية أشد وأقسى منها في بلاد الكثلكة . لقد تعلمت الكنيسة الرومانية من أخطائها التي كلفتها ثمناً غالياً ، وبخاصة من موقفها إزاء كوبرنيكوس وغاليليو ، وأفْقَهَتْهَا قيمة الاخطار التي تكتنف دعوى العصمة التي تدعيها ، لدى وقوفها في وجه علم أخذ يتنشَّأ وينمو . لهذا كانت المعارضة في إيطاليا طفيفة وأثرها ضئيل، في حين أنها بلغت في انجلترا أقسى صورها وأعتى أساليبها، إذ أخرجت من رجالها من كانوا أشد المنابذين لعلم الجيولوجيا ، طوال عصر التنابذ الذي قام بين الكنيسة وذلك العلم ، كما أبرزت أقوى المناقشين في حقائقه العاملين على هدم قواعده الثابتة ، الراجعين بمبادئه إلى ضروب من التوفيق كانت إلى الخيال والاصطناع أقرب شيء . على ان الكنيسة الانجليزية قد أخرجت بعض شخصيات اتصفت بالنبل كالاسقف كلايتون ويوحنا متشل ، أخذوا بيد العلم وأيدوا الأسلوب العلمي . ولكن الظاهر أن أمثالهما قد أضاعهم دوي الاصوات المنبعثة من حناجر رجال الكنيسة والمنابذين ، أولئك الذين ظهر خلطهم بين اللاهوت والعلم مضحكاً حيناً ومؤسياً حيناً آخر ، وكان مظهرهم هذا من أروع مظاهر التاريخ الحديث ، بل من أكثرها تفقيهاً في العلم بالطبع البشري .

لقد نلحظُ أن لهجمات اللاهوت على العلم ثلاثة أطوار أو بالحري ثلاثة وجوه تطرد كل اطراد . ينطبع الطور الاول بطابع الرجوع إلى النصوص المقدسة والمقررات التي يقررها أهل اللاهوت إزاء كل علم ناشيء . ويتصف الطور الثالث بمحاولات ترمي إلى التوفيق بين العبارات المقدسة وحقائق العلم الثابتة ، أما الطور الثاني ، وبمعنى آخر الدور الأوسط ، فيلابسه التمسك بعقيدة لاهوتية ذات أثر في

العقول يحاربُ من طريقها العلم . رأينا ذلك في علم الفلك عند ما استمسك « بلارمين » ومناصروه بأن الحقيقة العلمية القائلة بدوران الارض من حول الشمس تنابذ العقيدة اللاهوتية في التجسد . وكذلك حدث مع علم الجيولوجيا إذ قيل بأن الحقيقة العلمية القائلة بأن الحفريات إنما تمثل حيوانات بادت وفنيت من قبل أن يكون آدم ، تخالف العقيدة اللاهوتية في هبوط آدم وان بهبوطه « حلَّ الموت بالعالم من طريق المعصية » .

في الطور الثاني من أطوار الجلاد بين اللاهوت والعلم الجيولوجي ، زخرت انجلترا خاصة برجال من كبار مؤيدي الارثوذكسية ، وفي مقدمتهم ‚‚ توماس بارنت ‚‚ .

وفي الربع الاخير من القرن السابع عشر ، وبالحري في نفس الوقت الذي أهدى فيه ‚‚ نيوتن ‚‚ للعالم استكشافه الفذ ، نشر ‚‚ بارنت ‚‚ كتابه ‚‚ النظرية المقدسة في تكوين الارض ‚‚ . وكان ‚‚ بارنت ‚‚ أثير المكانة رفيع المنصب . ولقد اتخذ من النص المشهور في رسالة بطرس الثانية سنداً ، فقال إن الطوفان حطم الدنيا القديمة وأقام دنيا جديدة . ورفض نظرية نيوتن . واعتمد في نظريته في الطوفان على تفجر ينابيع الغور الأعظم ، أكثر من اعتماده على فتح نوافذ السماء بماء منهمر . وكان وثوقه بتلك النظرية ثابتاً أكيداً ، لأنه كان يعتقد أن باطن الارض مجوف مملوء بسائل ، فهي أشبه ما تكون بالبيضة . فأخذ من سفر التكوين نصوصاً متفرقة وبخاصة من رسالة بطرس الثانية ، والنظرية اللاهوتية في طرد آدم ، وأخرى فلكية في منطقة البروج ، وفكرات انتحلها عن ديكارت وخلطها جميعاً بعضها ببعض ، ومضى يؤكد انه قبل أن تأتي المعصية بالطوفان ، كانت الارض مصوَّرة على مقتضى نظام هندسيّ كامل ، وكانت ملساء

جميلة „ كالبيضة “ ، فلم يكن بها من بحار أو جزائر أو وديان أو صخور ، ولا من „ أخاديد أو صدوع أو ندوب “ ، وان كل الخليقة كانت على غرارها ، اكمال تكوين وحسن صورة .

وفي كتابه الثاني ، تقدم „ بارنت “ خطوة أخرى . فكما انه خلط في كتابه الأول بين نصوص من سفر التكوين ورسالة بطرس وديكارت ، مزج في كتابه الثاني قصة الفردوس كما رواها سفر التكوين بالأساطير الوثنية عن «العصر الذهبي» واستنتج من ذلك كله انه قبل أن يأتي الطوفان كانت الارض في ربيع دائم ، فلم يكن يغشاها مطر ، اللهمَّ إلاَّ ما يشبه الندى المتساقط .

وبالاضافة إلى هذه الأسانيد التي أنكر بها وجود البحار قبل المعصية ، أراد أن يعلل سبب ذلك ، فقال بأنه إذا كانت البحار قد وجدت قبل الطوفان ، إذن لتعلم العصاة كيف يبنون السفن ، ولاستطاعوا عندما يحل الطوفان أن ينجوا بأنفسهم .

كان الكتاب قوي الاسلوب حسن العبارة ، فنجح في جذب الأنظار اليه . ولقد ترجم إلى لغات متفرقة ، وأثار كثيراً من المعارضين ، كما نال عطف كثير من المؤيدين في جميع أنحاء أوربا . عارضه كثير من الرجال الاقوياء ذوي النفوذ ، وبخاصة في انجلترا ، وكان منهم جماعة قليلة من أفذاذ الكنيسة . ولكن الكنيسة على وجه عام حيته أعظم تحية وتقبلته بأحسن القبول . ومدحه „ أديسون “ بقصيدة لاتينية ، وظلَّ قرابة قرن مؤثراً في الشعور الأوربي تأثيراً كبيراً ، وساعد في أن يجعل النظرية اللاهوتية تضرب أصولها في الفكر ، نظرية أن الارض ، كما هي كائنة اليوم ، إنما هي حطام ، في حين أنها قبل أن تأتي المعصية بالطوفان كانت جميلة في صورتها التي هي أشبه بالبيضة ، منزهة عن كل النقائص ، محبوَّة بكل الكمالات .

بعد ذلك بسنين قلائل تقدَّم كاتب رفيع المكانة هو ,, وليم وستون ،، الاستاذ بجامعة كمبردج ، فنشر في سنة ١٦٩٦ كتابه ,, نظرية جديدة في تكوين الارض ،، . لم يجر هذا الكاتب في أعقاب ,, بارنت ،، بل حاول أن ينتفع بالفكرات النيوتونية ، ومن أجل أن يعلل الكارثة الجيولوجية التي سببتها المعصية أدخل في الأمر مذنباً صدم الارض ، ففجَّر ,, ينابيع الغور الأعظم ،، .

***

أعظم من هذين البطلين ، ثلاثة آخرون ظهروا في القرن الثامن عشر ، عملوا جميعاً على اخضاع العلم الجيولوجي للاَّهوت ، وقد خصوا جميعاً بقدرة فائقة ، وهم : يوحنا وسلي وآدم كلارك ورتشارد واطسون . لقد اشترك ثلاثتهم في سمو الكفايات العقلية ومتانة الخلق ونبل الغرض ، وكان أولهم من أعظم من يذكر تاريخ انجلترا من الرجال . ومع ذلك نجدهم جميعاً وقد استخضعهم نص الكتب المقدسة إزاء علم الجيولوجيا ، واستعبدهم مجلىً عابر من مجالي اللاهوت .

إزاء السحر والشعوذة ، وإزاء الفكرة في المذنبات ، كان موقف « وسلي » كما كان موقفه إزاء الجيولوجيا سبباً جرَّه إلى أخطاء فاحشة . إن العقيدة الكبرى التي اتبعها وسلي وواطسون وكلارك والتي جاروا فيها القديس أوغسطين وبيده وبطرس لومبارد ، وجمهرة كبيرة من أعظم العقول التي استظلت بالكنيسة ، والتي ظنَّ ان من الواجب الاستمساك بها إزاء الجيولوجيين ، انحصرت في القول بأنَّ الموت نزل بالدنيا من جرَّاء المعصية وطرد آدم وحواء من الفردوس وهبوطهما إلى الأرض ، وإن المدى الذي بلغ اليه اعتقاد وسلي في ضرورة الأخذ بهذه العقيدة ، يلوح لنا بعيداً عن التصديق في عصرنا هذا .

« البقية على الصفحة ٣٠٦ »

# نظرات في النفس والحياة

## — ١٤ —

## نظرات جورج أليوت سويفت

جورج أليوت هو الإسم الذي اشتهرت به ماري إيفانز الكاتبة الانجليزية الشهيرة. وقد اشتهر من الكاتبات الأوروبيات كثيرات، وربما كانت لبعضهنَّ شهرة عالمية أكثر من شهرتها، ولكن الفحص والتمحيص يدل على أنها من غير شك أعمق بصيرة وأغزر فكراً وأرجح رأياً وأعظم خيالاً من مدام ده سافيني، أو مدام ده ستايل، أو جورج ساند. أو جين أوستن أو غيرهنَّ. ويمكن تقسيم مؤلفاتها الهامة الى أربعة أقسام: القسم الأول. يشمل القصص التي تشرح فيها صفات نفوس من حولها من الناس، وهذه الكتب مثل أموس بارتون وآدام بيد وسيلاس مارنر وغيرها هي أكثر كتبها رواجاً بين القراء الانجليز لأنَّ موضوع كلٍّ منها أقرب الى أذهانهم ولأنها أسهل أسلوباً. والقسم الثاني من مؤلفاتها يشمل قصة رومولا التاريخية التي تصف فيها عهد احياء العلوم في إيطاليا بمحامده ومكارهه والقصة التاريخية أشق وأصعب في تأليفها لأنها تحتاج الى دراسة ذلك العهد ونقد ما يذكر عنه وتصوره ببصيرة نافذة. وقصة (رومولا) من القصص التاريخية الكبيرة التي يصح أن تحتل مكاناً ما بين ازموند لثاكري، وسان أنطوان وسلامبو لفلوبير وتاييس، والآلهة ظماى لاناتول فرانس وبعض القصص التاريخية الشهيرة الأخرى. والقسم الثالث من مؤلفاتها قصة مدلمارش وقصة دانيال ديروندا وهي لا تقل فيهما بصيرةً ولكنها تبعد عن النفوس المألوفة حولها التى وصفتها في القسم الأول، كما أن عادة الاسترسال في الفكر تغلب عليها ويغلب عليها الأسلوب الفكري. والقسم الرابع من مؤلفاتها رسائل ثيوفراست دعتها باسم فيلسوف أغريقي قديم وهي وصف لخصائص أخلاق الناس على نمط لابروير. وهذه

الكاتبة فضلاً عن انها درست ثقافات الأمم المختلفة كما يتضح من قراءة مؤلفاتها فانها وارثة بصيرة شكسبير وهنري فيلدنج القصصي الانجليزي على اختلاف ما بينها وبينهما. وكثيراً ما تذكرنا مقدمات فصول توم جونز لهنري فيلدنج — وهي على شكل رسائل وبحوث في النفوس في آثار هذه الكاتبة ويصح جمع كلمات عديدة من مؤلفاتها لا تقل عن كلمات عظماء المفكرين من الرجال كما يتضح من نظراتها الآتية : —

(١) إذا أساء إلينا إنسان ثم خاب في أمرٍ لا صلة له بإساءته أو خاب في أمور حياته عامة أحسسنا كأن خيبته في أمور حياته بسبب إساءته إلينا. كأن نظام الحياة لا يستقيم ما دام قد أساء إلينا إلاّ بخيبته، وكأنَّ تلك الخيبة نتيجة طبيعيّة للاساءة إلينا. وهذا الاحساس يشتدّ أعظم ما يشتدّ في نفوس ذوي الأثَرَةِ والجهل. ولعلَّ سببه إن المساء إليه من غيظه يريد الانتقام فيتخيل أنه قد أصابَ المسيء مصيبةٌ فاذا حلَّت به مصيبةٌ سهل عليه أن يحسَّ انها نتيجة اساءته إليه. وكل إنسان كما قال أناتول فرانس يحس كأنه قطب الدنيا ومحور العالم وكل من يسيء إليه. إذاً يكون كأنه خارج على نظام العالم فلا غرو اذا خاب وفشل !!

(٢) قد يكون الإنسان فظًّا قاسياً في نقد الناس وأعمالهم ومع ذلك قد يكون رقيق الحاشية والطبع مع اسرته. وبعض الكُتَّاب كان بيده اليمنى يصول بقلم يقطر سمًّا وهلاكاً في نقد إنسان آخر، وبيده اليسرى يهز أرجوحة طفله الصغير بحنان ورفق... وهذا يذكرنا هيبير مندوب المجلس البلدي بباريس أيام حكم الارهاب. وهذا الفارق يعظم أيام الاضطراب والثورات. وقد وصف الدكتور كابانيه في كتابه لنفروس رفليوسنير كيف أن الإنسان الرقيق الطبع الوديع الأخلاق قد ينقلب ويصير وحشاً ضارياً اذا كان في جماعة تحبذ أقواله وأعماله القاسية. وفي هذا مصداق النظرة التالية لجورج اليوت وهي :

(٣) عند ما نخدع الناس أو نسيء إليهم ونحن وحدنا قد نتردَّد ونتحرَّج من بعض أساليب الخداع أو الشر ونأنف منها ونخشى اللوم ولا نريدها إلاَّ للضرورة القاهرة فاذا اجتمعنا والناس واتفقنا معهم في تلك الأساليب ووجدنا منهم تحبيذاً لها تسلطت أساليب الخداع أو المكر أو الشر والإجرام علينا، ولم نشعر بصعوبة في ارتيادها ما دام الناس

معنا . وهذا ما وصفه وضرب له الأمثال الدكتور كابانيه في كتابه عن الاضطراب الثوري وأثره في النفس والجسم .

(٤) إن الانسان قد تكون نظرياته ومبادئه مخطئة ولكن إحساساته وأعماله نبيلة كما يصدق العكس فقد تكون نظريات المرء ومبادئه وعقائده سامية نبيلة بينما تكون أعماله بالضد من ذلك . ومن أجل هذا الخلاف ينصح النقاد للمؤرخ أن يميز بين مبادئ رجال التاريخ وبين أعمالهم . وهذه نصيحة واجبة لكل إنسان في الحياة اليومية أيضاً، إذ كثيراً ما يخطىء فيظن أن مبادىء المرء وإحساساته وأعماله كلها من طراز واحد وهي أصناف مختلفة .

(٥) إن ذوي النقص والعاهات في حاجة الى فضائل ومزايا تزينهم لأنهم يشعرون بقلق اذا لم تكن لهم إلاّ عاهاتهم، أو كان لهم نقصهم وحده . ولكن الفكرة التي تجعل الفضائل أو الفضل بدلاً لهم ووقاية كما تقي الطبيعة الحيوانات في الشتاء البارد بفرو كثيف فكرة مبالغ فيها مبالغة كثيرة، إذ كم من أناس من ذوي النقص أو العاهات لا فضل لهم ولا فضيلة إلاّ أن يكون الفضل ومزايا النبوغ كامنة في النفس تظهرها الحوادث سواء أكانت عاهات أم لم يكن نقص — فمن الذي يستطيع ان يقطع بأن ذكاء زياد بن أبيه وفصاحته وقدرته في تصريف الأمور كلها كانت بسبب مطعن أو مغمز في نسبه ولم تكن هبات طبيعية في نفسه . ومن أجل ذلك يخطىء بعض العامة خطأ أوليّاً في علم المنطق فيقلبون هذه الفكرة ويجعلون الفضل على عاهة أو نقص . وهذا يذكرنا بعض الشواهد التي تصف هذا الخطأ في علم المنطق كمن يقول مثلاً كل القِطَطَةِ حيوانات . فإذاً كل الحيوانات قِطَطَةٌ وقلب الفكرة لا يجوز في علم المنطق .

(٦) من الغريب أن الناس كثيراً ما يتعجبون لحدوث شيء هم الذين عملوا لإحداثه، كما يتعجبون إذا لم يحدث أمر لم يصنعوا شيئاً لإحداثه كالآباء الذين يتعجبون من جهل أبنائهم وقلة تربيتهم وهم السبب إذ لم يحزموا أمرهم لتربيتهم، والأزواج يتعجبون لفقدانهم المحبة وانقطاع أواصرها بين الزوج وزوجه ولم يعملا لتهيئة سبيل بقائها، والجيران يتعجبون من نفور جيرانهم منهم ولم يعقدوا أواصر المودة معهم .

(٧) ما أشد اعتماد الناس على ما قد يأتي عفواً، فإذا عمل المرء عملاً يحط من كرامته تعلق باحتمال عدم ظهوره، وإذا أسرف تشبث باحتمال الكسب من وجه آخر غير منظور ولا محتمل، وإذا أساء تنظيم عمله تمسك باحتمال إن اساءته تنظيم عمله ليست هامة لنجاحه فيه، وإذا خان صديقه اعتمد على أن الصديق قد لا يعرف خيانته له وعاقبة ما نزرع من بذور تلك الأوهام الباطلة في الاعتماد على الأمر المرغوب فيه الذي هو غير محتمل الحدوث إنما تنتج محصولاً باطلاً ومحالاً من نوعها. وليس الجهلاء وحدهم هم الذين يتشبثون بالمحال المرغوب فيه فقد قال مارمونت وغيره إن نابليون بونابرت في أواخر أيام مجده كان مهما صححت له الحقائق يعود إلى ما حسبها قبل تصحيحها.

(٨) ما أشد إلحاح الرغبات الإنسانية فإذا تملكت النفس رغبة لا يغنيه إن تقدم له ما هو عوض عنها من أمر آخر ولو كان مثلها أو خيراً منها. وهذا مشاهد في تشبث الأطفال بالأمر المرغوب فيه كما هو مشاهد في تشبث الكبار.

(٩) الشعور بالأمن يكون ناشئاً من العادة أكثر مما يكون ناشئاً من الأدلة والاعتقاد. ومن أجل ذلك كثيراً ما يوجد الشعور بالأمن إذا إعتاده الانسان حتى بعد زوال الأحوال التي جعلته عادة وصيرت الانسان يسكن اليه ويطمئن، فإن منطق العادة يغلب على ذهنه، ويرى أن الخطر محال حدوثه مع إن مرور الزمن قد يكون السبب في حدوثه. ومَثَل ذلك مَثَل الرجل الذي يكون سقف بيته آيلاً إلى السقوط فإذا لم يسقط وتعوَّد الأمان حرمته تلك العادة من أن يرى في مرور الزمن ما هو كفيل بايهانه وإضعافه وسقوطه وقس على ذلك كل أمور الحياة.

(١٠) إنها قاعدة عامة وهي أنه لا بدَّ للنفس من أمر خفي غير موثوق به كي يُغَذي أملها وشكها وعملها فلو انكشفت لنا أمور المستقبل لما علقت النفس بها ولا سرعت بأملها وعملها وشكها وشعورها إلى غير المستقبل المكشوف المعروف ..... وهذا الرأي أصح حجة من تعجب كعب بن زهير من سعي الانسان وعمله مع ان القدر مخبوء عنه. وذلك في قوله:

لو كنتُ أعجب من شيء لأعجبني     سَعْيُ الفتى وهو مخبوءٌ له القَدَرُ

(١١) إذا تحمل أحد الناس غضبنا بسكوت وطيبة قلب وعطف، فإننا إذا سكن غضبنا قد نشكّ بسبب مسلكه معنا وهدوئه في مداراة غضبنا في اننا كنا على حق، ونشك في ان معاملتنا له كانت معاملة لائقة ويزداد هذا الشك والأسف اذا مات من تحمل غضبنا بسكوت وطيبة قلب وذهب الى عالم الصمت الأكبر.

(١٢) قال يوليسس في قصة سوفوكليس: دعنا مرة واحدة نرتاد سبيل المكر والكذب والاحتيال والشر الخ. ثم نعود بعدها دائماً أبداً الى سبيل الصدق والشرف في العمل والفكر والوسيلة. وهذا كثيراً ما تقوله النفس في باطن نفسها استدراجاً لها ومخادعة، فتستمر في الكذب والمكر والشر أكثر حياتها بعد ان كانت توهم نفسها انها مرة واحدة صغيرة ثم بعدها مرة أخرى صغيرة الخ.

(١٣) كل عمل مذموم يستدرج صانعه الى أعمال وأقوال عديدة مذمومة كي يزكيه ويسوغه، وكي يزكي ويُسَوِّغ الأعمال المذمومة التي يزكيه بها. وتستمر تلك العدوى في نزعات النفس ورغباتها فاذا أثم المرء لم ينته إثمه بعمله، ولا تنقطع سلسلة آثامه، الاّ اذا اعترف بخطأه أو اثمه، فلا يحتاج إذاً الى شرور كي يزكيه. واذا ظلم انساناً لا يقنع حتى يزكيه بظلم آخر. وهذا يذكرني ما صنعه أحد الكرادلة الذي نقم على رجل نقده فاتّهمه بالكفر بالمسيحية في عهد كان جزاء من يتهم به الحرق. ولم يكتف بذلك بل انه صهر في النار صليباً من الحديد وقدمه اليه كي يتوب ويقبّله وكان الرجل موثقاً فنفر من ألم حرارة انصهار الصليب وزوى وجهه عنه وانما فعل عدوه ذلك كي يقال انه نفر من الصليب لكفره بالمسيحية، اذ كان الناس لا يعرفون انه وضع الصليب الحديدي في النار. وهكذا زكى هذا الكردنال إثمه الأول بإثمٍ ثانٍ — على أن تزكية العمل المذموم أو القول المذموم بعمل أو قول آخر مذموم أمر مألوف كثير الحدوث في الحياة اليومية.

(١٤) كثيراً ما نخدع أنفسنا حتى نصدق أن أثرتها في معاملة الناس كانت تكون أقل قسوة وأكثر انصافاً وأبرّ بهم وأعدل لو اننا عرفنا حقيقة حالتهم ولكن إيثارنا الرفق لا يقوى الاّ بعد فوز أثرتنا ونيل أنفسنا ما تريد لا قبل الفوز به. وقد تعرف النفس حالة من تعاملهم، ولكنها تتناساها حتى تنساها. وتتجاهلها حتى تجهلها مغالطة من النفس

للنفس، كي تدعي انها كانت تكون أرفق وأبر وأعدل. على أنه بالرغم من هذه المغالطة فان العوز قد يزيدها إثرة وعنفاً وقسوة وظلماً .

(١٥) بعض الأخيلة التي نخدع بها انما نخدع بها ونحن نشعر بذلك الخداع، واللذة فيه كاللذة التي نجدها في رؤية مجموعات الألوان التي تصنع من قطع الزجاج الملوّن فتتخذ أشكالاً بديعة في الفانوس السحري . وكما أن الطفل يلذ له أن يلعب لعبة أساسها خداع النفس بالأمور وحقائقها حتى يصير لعبه جدّاً، كذلك العاشق يلذ له أن يخدع نفسه وهو يعرف انه يخدعها . وهذا يذكرنا قول أبي نواس .

صار جدّاً ما مزحتُ به    ربَّ جدٍّ ساقهُ اللعب

(١٦) لعل السبب في اننا كثيراً ما نخيب في أن نعزي معاشرينا في مصاب أصابهم ونسليهم عنه أنهم يشعرون ونحن نعزيهم بحبنا لأنفسنا، واننا انما نفكر في كل ما يهمنا من مطالب إثرتِنا وهذا لا يمنع أن تكون ممزوجة بشيء من العطف على الناس في مصابهم وإن كانت هي الغالبة. وبالرغم من أن كل انسان يعرف ذلك في نفسه، فانه اذا أصابه خطب أو مصاب أمّل أكثر من ذلك من غيره وتوقع مشاركة أعظم منه في مصابه أو خطبه .

(١٧) الحياة اليومية هي محاولة كل انسان أن يخفي نفسه عن معاشريه وراء كلمات وأعمال مزيفة، وهؤلاء المعاشرون أشد بعداً عن المرء من نفسه وخواطرها وما بها من شرور لا تنطق بها، ولا تبين عنها، وقد لا تعملها ومن خير كثير قد لا تصنعه. وكثيراً ما نفكر في عمل آثام لا نستطيع أن نعملها كما نفكر في صنع أعمال من أعمال الخير أو اللباقة والمهارة لا نستطيع عملها. فخواطرنا قد تكون أسوأ أو أفضل منا . وقد علل سمرست موام القصصي اتهام الأتقياء الأبرار الأخيار أنفسهم أو توقعهم العقوبة في الآخرة بخواطر السوء التي تتردد في النفس ولا تصنع صنعاً كما أن بعض الناس قد يمدح نفسه بسبب خواطر الخير التي تتردد في نفسه ولا يعمل شيئاً لتحقيقها .

(١٨) كما أن الشاب المملوء صحة وحياة ونشاطاً يصعب عليه أن يدرك الموت كل الادراك، وإن يحس وطأته مهما رأى من مظاهره . كذلك يصعب عليه أن يدرك الشقاء الكارث وأن يحس وطأته . وهو يؤمن في سريرة نفسه ان المقادير لا بد أن تنجي شبابه

وصحته ونشاطه وحياته منه حتى ولو كان ذلك في آخر لحظة قبل أن يكرثه. ولعل هذا الاحساس هو سبب استهتار الشباب أو شجاعته واستهانته بمعضلات الحياة.

(١٩) مما يساعدنا على أن نعمل في الحياة عملاً قليلاً طيباً أننا لا نعرف ما في سرائر أصدقائنا ومعاشرينا عنا مما يثبطنا، وليس في الحياة مرآة تعرفنا حقيقة أنفسنا فنطمئن. وهذا الاطمئنان يجعلنا نظن أننا نعمل عملاً كبيراً عظيماً، فنستطيع بذلك أن نعمل ولو عملاً صغيراً طيباً. وكما أن الطفل الصغير الذي يتعوَّد نظره الصغير بعد قياس المسافات، كثيراً ما يصطدم بالأشياء، كذلك الانسان الذي لم يختبر أمور الحياة بفطنة يحسب أن مكانته في الحياة مكانة كبيرة وهي صغيرة جداً، ويصطدم بالمراقيل كما يصطدم الطفل الصغير بالأشياء إذ لم يتعوَّد بعد قياس المسافات بنظره.

(٢٠) كثيراً ما يسوِّغ المرء أموراً غير سائغة ولا جائزة بتغيير أسمائها، فيسمي اضطهاده الناس مقاومة، أو الخرق والهوج إصلاحاً وتجديداً. وقس على ذلك جميع أمور الحياة التي لا تسوغ، فبتغيير أسماء الأمور يستطيع المرء ان يعمل ما هو حبيب الى نفسه وإن كان شراً مكروهاً.

(٢١) ليتذكر المرء اذا أقدم على عمل ان الحياة كعملية حسابية لا يستطاع عملها مرة ثانية لتصحيحها وتلافي أغلاطها، كما لا يستطاع تصحيح عمل الطرح بأن يعمل عمل الجمع في الحساب صحيحاً.

(٢٢) إن الناس قد يرحمون الميت وقد يزكونه. وطالما كانوا يرون من الواجب المفروض، سحق قلبه، ما دام ينبض وقهر عقله ما دام يفكر فاذا سكنا سكون الموت فلا بأس من الاحسان اليه بكلمات مزيفة واحساس بالرفق مصطنع.

(٢٣) إن تخدير النفس بتجاهل الحقائق حتى تجهلها، حالة نفسية تختلف كل الاختلاف عن حالة السكينة والاطمئنان مع معرفة الحقائق معرفة تامة. ولكننا كثيراً ما نخلط بين الحالتين.

(٢٤) أول ما يصيب المرء الخطب أو الضيق قد تستفزه الاصابة المفاجئة فتكسبه قوة مؤقتة لا تزول حتى يصير الحزن والخطب عادة ونيراً.

(٢٥) بعض الناس لا يستطيعون تحمل حتى القليل من الإهانة إلاَّ اذا استطاعوا أن يغمضوا أعينهم عنها ، او ان يتمكنوا من الامتناع عن تصديقها ومعرفتها والاقرار بها والفطنة اليها ومغالطة أنفسهم فيها . فاذا لم يستطيعوا إلاَّ مواجهتها ومعرفتها كانت حياتهم عبئاً ثقيلاً ربما لا يقدرون على حمله مع ان كل انسان لا يخلو من أمثالها في الحياة .

(٢٦) إن بعض ذوي النجاح وان كانوا معروفين بسلامة الطوية والنية قد يجدون لذة في ايقاع الشر بعض الناس اذا كان عمله سهلاً ولا يعوق أعمالهم الناجحة . وكأنما يصنعونه على سبيل اللهو أو الفكاهة أو التنفيس عن خطرات كامنة في نفوسهم أو لاثبات قدرتهم . وهذا الرأي يذكرني بقصة لسمرست موام عن تاجر انجليزي في اليابان كان ناجحاً وكان معروفاً بين أهله ومعاشريه بطيبة القلب ، فطلب منه أحد الخُيَّاب من بني جنسه أن يجد له عملاً يرتزق منه ، وكان هذا الخائب في شبابه مشهوراً بالسباحة في البحر قبل أن يصيب الدهر من قوته فاشترط التاجر عليه أن يسبح مسافة طويلة في البحر في مكان شديد التيار فاذا فاز ألحقه بعمل يرتزق منه . ولكن الرجل هلك في أثناء سباحته ، وعند ما سأل سائل التاجر عن سبب اشتراط هذا الشرط قال مبتسماً الحقيقة هي أني لم يكن عندي له عمل أي انه كان يعرف أنه هالك لامحالة . وأنواع هذا الشر من أهل النجاح وأمثاله كثيرة الوسائل ... واذا أصاب النجاح خائباً عفواً من غير جهد كبير منه حقد عليه أهل النجاح الذين كدُّوا واحتالوا للنجاح وعدُّوها قسمة ضيزى ، مع أن نجاحه قد لا يؤثر في نجاحهم ولا يقلل منه . واذا كان هذا الحقد والحسد شأن ذوي النجاح فكيف بما يعانيه التعساء المحرومون .

(٢٧) من السعادة أن يعوِّد المرء نفسه أن يعيش معها بدل أن يشرئب دائماً الى اعتبار الحياة سوقاً يرتاده الناس للتفرج عن أنفسهم برؤية المعروضات . وبعضٌ لم يعود نفسه أن يعيش معها لا يطيق عشرة نفسه . وهذا من أسباب الحاجة الى المصادقة والمصاحبة .

(٢٨) كثيراً ما نعمل عملاً فلا نرى من الناس ارتياحاً إليه أو اقتناعاً به أو إعجاباً . ولا يثبطنا ذلك ، ولا يصرفنا عن عمله ، بل نحسب أن سبب عدم ارتياحهم واقتناعهم قلة ما صنعنا

منه ، فنثابر على عمله توقعاً لظهور ارتياح الناس إليه واقتناعهم به وإن كان غير مقنع .

(٢٩) قد يتوقع المرء حدوث الأمر المحال وهو يؤمن إيماناً تامـّـا أنه سيحدث ولا فرق بين هـذا وبين الجنون إلاّ ان الحوادث قد تبدّد ذلك التوقع والإيمان، ولا تبدّد الجنون .

(٣٠ ) ان الطبع الذي يميل دائماً الى السيطرة والتحكم حتى في الأمور التافهة الصغيرة لا بدّ أن يكون به جانب من الضعة والحقارة ويخفيهما بذلك التحكم .

(٣١) بعض اللغات قد تكون فيها طلاوة وحلاوة لا يشعر بها من يقرؤها، كذلك بعض الوجوه قد تعبـّر للرائي عن أكثر مما في أنفس أصحابها من معانٍ .

(٣٢) عند ما يريد الناس تصديق الأكاذيب أو إذاعتها حتى يصدقها غيرهم يقولون : — لا دخان من غير نار ... ومَثَلهم مَثَل الذي يُعكـّر الهواء بدخان ( بيبته ) أو نرجيلته أو لفافة تبغه ثم يحسب أن الدخان والنـار من عند غيره وهي من عنـده ، والأكاذيب أو النقائص التي يراد تصديقها في نفسه .

(٣٣) المصلحون يشعرون بسرور في كل اصلاح ، ولا يعطفون على النفوس التي تأسف مع ذلك لما يصيب كثير من الناس في كل اصلاح من ضرر وألم وشقاء بسبب انتقال الأمور من حال الى حال عند الاصلاح . والمصلحون لا يقتصرون على حرمان تلك النفوس من العطف، بل إنهم قد يعدون أسفها على من نالهم الشقاء بسبب الإصلاح، خلافاً لهم في الرأي والمبدأ، أو خيانة لعهد الاصلاح فيشركونها في الشقاء أو الاعدام .

(٣٤) لا يستطيع العامل صنع عمل جليل شبه معجز إلاّ بإيمانه بنفسه ، وأكثر إيمان العامل بنفسه مستمد من إيمان الناس به أو ايمان طائفة كبيرة منهم ، ولكنه اذا فقد ايمان الناس به ، لا يلبث إيمانه بنفسه أن يزعزع مهما كان عظيماً . إلاّ اذا كان قليل الإحساس لا يلتفت الى حقائق العالم . على أن العامل قد يكون هو الذي خلق إيمان النـاس به في أول الأمر

( للبحث بقية )

ع . ش

# أشجان

نهاه عن الكأس ندمانها     وعن جنة الحب ولدانها
وآذاه في المُثُل المدّعو     ن فما دفعت عنه أوثانها
وعيره بجنون الشبا     ب شيوخٌ تأرجح ميزانها
وقالوا صباء والهوى والصبا     حياة النفوس ووجدانها
وبين الصبا والتصابي حدو     دٌ يؤود المساحيق إتيانها
ووصل الغواني هدايا الشبا     ب غوالي على الشيخ أثمانها
وما تستوي خفقات القلو     ب معذبهنّ وهيمانها
وما تستوي خلجات العيو     ن سواحرهنّ وولهانها
فما بالهم كلفوا بالذي     أتاه وهم منه أسمى نهى
وكيف استبدّت بأتقاهمُ     كؤوس الحميّا وألوانها
وورد الخدود وميل القدو     د وصاحي العيون ووسنانها
وما كذّبته المرايا ولا     تغير في الحق إيمانها
ولكنه الحق يقذي العيو     ن ويؤذي الحقيقة إعلانها
ويؤخذ باللمم المعلنو     ن ويخفي الكبائر كتمانها

* * *

أباريس منيتني بالحيا     ة فأين الحياة وسعدانها

وأين من العير ركب الأديب   إذا ما تفاخر فرسانها
وما حظه من سماط الحيا   ه إذا ما تسابق عقبانها
وأين من الورد شرب الكينا   ر اذا ما تزاحم غربانها

* * *

لها ما لها في سفين الشبا   ب وآب وما آب ربانها
وآب ليدفن أحلامه   فما وسعتهنَّ أكفانها
إلى شاطىء هرمٍ هادىء   وأرض تغيَّر سكانها
فلا قومه عامروها ولا   كبير العشيرة سحبانها
ولا الأجنبي خفيض الجنا   ح رحيم ولا العرف قانونها
ولا محض النصح (أشياخها)   ولا سأل الهدْي شبانها
ولا اقتحم النار قوادها   ولا امتحن النار فتيانها
فأنكر في الناس أن قد عموا   وصُمَّت عن الحق آذانها
وأنكرت الناس أن ينطوي   على نفسه وهو فنانها
فأفرغ في الكأس أشجانه   ففاضت على الكأس أشجانها
ولكنها آمنت خوفه   وأنساه ما ذاق تحنانها

حلمي أبو النجا

# تطور الآراء

# الاجتماعية والسياسية

## الحديثة

### للكاتب الانكليزي هـ . ج . ويلز

إنّ النظم والعادات والآراء السياسية التي كانت تميز المدنيات القديمة أخذت تنمو عصراً بعد عصر بشكل لم يكن أحد من الناس يتصوره أو يتنبأ به ، لأن هذا النمو لم يتضح إلاّ في القرن السادس الميلادي وهو العصر الذي يمثل فترة المراهقة البشرية . ففي هذا العصر أخذ الناس يفكرون في العلاقات التي تربط بعضهم بالبعض الآخر ، وابتدأت تجول في عقولهم أولى الاقتراحات حول امكان تغيير وإعادة تنظيم المعتقدات والقوانين والأساليب التي طال عليها القدم والتي كانت تسيطر على نظام الجماعة الإنسانية .

لقد أشرنا (١) الى فجر النهضة العقلية المجيدة الذي انتشرت أنواره في الاسكندرية وأثينا ، وأظهرنا بعد ذلك كيف انهارت المدنيات التي قامت على أكتاف العبيد ، وكيف حجبت الغيوم السود ، التي جمّعتها العصبيات الدينية وزادتها حلوكة الحكومات الفردية المطلقة ، الشمس التي كانت تريد أن تطلع مبشرة بعهدٍ جديد . ولهذا فإنّ الأضواء التي سلطتها الأفكار الحرة الجريئة لم تستطع أن تنفذ من بين هذه الظلمات المتراكبة المطبقة على أوربا إلاّ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وقد جرّبنا أن نشير اشارات عابرة الى الموجات التي امتدّت من بلاد العرب والى الغزوات التي شنها المغول ومشاركتها في هذا البعث العقلي الذي هزّ أوربا . وقد تمثلت هذه المشاركة على الأكثر في انماء المعرفة المادية ، لذلك كانت أولى الثمرات التي جنيت بعد احساس الانسان بامتياز جنسه هي تلك الاختراعات المادّية وتلك القوى الصناعية . إن علم العلاقات البشرية ، وعلم النفس الفردي والاجتماعي ،

---

(١) يشير ويلز الى الفصول السابقة في كتابه « تاريخ العالم » الذي اقتبسنا منه هذا الفصل .

وعلم التربية والاقتصاد ، لم تكن علوماً معقّدة في نفسها فقط ، بل كانت تتصل اتصالاً مشوشاً بالجوانب العاطفية لهذه المشكلة، ولهذا فإن التقدم الذي حصل فيها كان بطيئاً وجابه عراقيل كبيرة . لأن الانسان ينصت ، ولكن بلا هدف ، الى هذه الآراء المختلفة في الكواكب والذرات ، في حين أن أفكارنا التي تعمل للكشف عن أساليبنا في الحياة تستقر منا في الصميم وتؤثر على كل فرد تأثيراً عميقاً .

وكما عرفت تلك التأملات الجريئة التي رويت عن أفلاطون قبل أن يعاني ارسطو ما عانى من مشقة في جريه وراء الحقيقة ، كذلك حدث في أوربا أن وضعت أولى المسائل السياسية للوضع الجديد على شكل قصص خيالية نقلت مباشرة من جمهورية أفلاطون ومجموعة قوانينه . وإن جزيرة سير توماس مور الخيالية ليست غير تقليد طريف لآراء أفلاطون التي أنتجت فيما أنتجت قانوناً انكليزيّاً هزيلاً . وأما مدينة الشمس التي تخيلها كامبانيلا فكانت أكثر امعاناً في الخيال وأقل خصوبة .

وما إن انتهى القرن السابع عشر حتى أخذت المؤلفات الاولى في السياسة والاجتماع تنتشر بين الناس . ومن الروّاد الأوائل في هذه البحوث الفيلسوف جون لوك الذي كان من أبناء أحد دعاة الجمهورية في انكلترا . وكان لوك أول من وضع جملة ملاحظات في مسائل الطب والكيمياء ، ورسائله الأولى في الحكومة والتعليم والتسامح تكشف عن عقل واع مؤمن بضرورة إعادة بناء نظام الجماعة . ثم أعقبه مونتسكيو ، وهو عالم آخر من نفس هذا المستوى الرفيع، ظهر في فرنسا بين عامي (١٦٨٩ و ١٧٥٥) وأخضع الموضوعات الاجتماعية والسياسية والمعتقدات الدينية للتحليل والبحث، فجرّدها من تلك الأوهام التي كانت تسيطر على العقول في فرنسا وتملأها بخرافات الحكم الفوضوي . وإن فضله لا يقل عن فضل لوك في محاربة كثير من الآراء المزيفة التي كانت تقف في وجه كل محاولة تدبر عن قصد ووعي لإعادة بناء المجتمع البشري .

وإن الجيل الذي أعقب هؤلاء الفلاسفة في أواخر القرن الثامن عشر اندفع بجرأة ممعناً في تحليل المذاهب العقلية والأخلاقية السائدة . وان الانسكلوبيديين ، وهم جماعة ممتازة من الكتّاب ، كانوا أصحاب أرواح تعتمل في جوانحها فعاليات أشد من تلك الفعاليات التي

كانت تضطرب في نفوس طلاب مدارس الجزويت الممتازة ، إذ وحدوا جهودهم لوضع هيكل عالم جديد ( ١٧٦٦ ) . وقد اختطّ الفيزيوقراطيون نفس الطريق الذي اختطه الانسكلوبيديون ووضعوا بحوثاً جريئة غير ناضجة في تنظيم الانتاج وتوزيع الحاجات والخدمات . وأكثر من ذلك ان مؤلف « قانون الطبيعة » تشكى من نظام الملكية الخاصة واقترح تشييع المرافق الاجتماعية ، فكانت دعوته هذه طليعة تلك المدارس المختلفة التي انضمّ اليها المفكرون الاجتماعيون الذين تكتلوا سوية وسموا بالاشتراكيين .

ما هي الاشتراكية ؟ هناك مئات من التعاريف للاشتراكية وآلاف من الاشتراكيين . ولكن من الضروري أن نعرف ان الاشتراكية ليست أكثر ولا أقل من نقد لفكرة الملكية من وجهة المصلحة العامّة . وإننا سنسرد تاريخ هذه الفكرة بإيجاز في تطورها خلال العصور . إن الاشتراكية وكذلك العالمية فكرتان جديدتان في تاريخ الفكر البشري بينما أكثر الأفكار في حياتنا السياسية تطوّرت تطوراً تدريجيًّا صاحبَ الوعي الانساني في كل تاريخه .

والأصول الأولى لفكرة الملكية ترجع إلى الغرائز الشرسة في الأنواع الحيوانية . وقبل أن يكون الانسان انساناً من زمن طويل، كان جدنا « القرد » مالكاً . وان الملكية في شكلها الأول هي ما يدافع عنه الحيوان ، وتتمثل في قصة الكلب والعظمة ، والنمر والعرين ، وزئير الذئب والقطيع ، فهذه كلها أصول للملكية . ولعلّ ليس هناك اصطلاح غير ذات معنى قُبل في علم النفس كاصطلاح الشيوعية البدائية . فإن الانسان القبلي القديم وإنسان العصور الحجرية الأولى كان يتمسك بحق الملكية بالنسبة لزوجاته وبناته وأدواته ومحله الذي يأوي اليه . فاذا ما اعتدى شخص آخر على هذا المكان الذي اتخذه مسكناً فإنه يقاتله ، وإذا استطاع فإنه يذبحه . وإن نظام القبيلة نما خلال العصور ، وقد لاحظ « اتكنسن » في كتابه « القانون الأول » إن هذا النظام نما بعد أن استقرت في نفس الرجل القديم نزعة التساهل : التساهل في الإبقاء على الرجال الأصغر منه ، وفي حقه في زوجاته اللواتي يسلبهنّ من القبائل الأخرى ، وفي عدّته وحليه ، وفي صيده الذي يقتنصه ، وقد نما المجتمع البشري بتعاون أصحاب الأملاك بعضهم مع بعض ، وإن هذا التعاون

فرض نفسه على الانسان عند ظهور الحاجة الى التكاثف لدفع اعتداء القبائل الأخرى على المكان الذي يسكنه . فاذا لم تكن التلال والغابات والجداول ملكك ولم تكن ملكي ، فذلك لأنها ملكنا جميعاً . كل واحد منا يفضل أن يقول إن هذا ملكي ، ولكن هذا ليس هو العمل المنظم ، لأن الآخرين في هذه الحالة سيدمرونتا . ولذلك فإن المجتمع منذ أن وجد عمل على التخفيف من الشعور بحق التملك . وإن غريزة التملك في الحيوان وفي الانسان الوحشي أشد قوة منها في الانسان المتمدين ، ولهذا فإننا نجد جذورها في عواطفنا لا في عقولنا .

ولم يكن في عصر الانسان المتوحش ولا في عصر الانسان المتمدين اليوم أي تحديد الملكية . فكل ما تستطيع الدفاع عنه فهو ملكك : نساء العشيرة ، الاحتياطي المذخور ، الحيوان المصطاد ، الكهف المحفور في الصخور ، الطريق المفتوح في الغابة . ولكن كلما نما المجتمع نمت معه أنواع من القوانين التي كانت تمنع القتال الشرس ، وتدفع الانسان أكثر وأكثر لاستصناع وسائل أكثر مثالية لاثبات ملكيته. وكان الناس يستطيعون أن يتملكوا كل ما يستطيعون صنعه أو القبض عليه أو الادعاء به ، وكان من الطبيعي في مثل هكذا نظام أن يصبح المدين الذي لا يقدر على الدفع ملكاً لدائنه . إلاّ أن فكرة الملكية التي لا تخضع لقيد ولا حد أخذت تتغير ببطء ، فكل التغيرات التي طرأت على أنظمة الحياة التي يخضع لها الانسان ، أخذت تهتز أسسها وتفقد ما كان لها من استقرار وثبات ، إن الناس وجدوا أنفسهم يولدون في أرض يملكونها جميعاً ، ويدعون بها كلهم ، ولم يولدوا في أرض يملكها كل واحد لنفسه ويدعي بها لذاته. وانه من الصعب تتبع آثار الانقلابات الاجتماعية في المدنيات القديمة ، ولكن تاريخ الجمهورية الرومانية يرينا بأن المجتمع قد استيقظ على فكرة أن الديون شيء مزعج للناس. ولذلك يجب أن تلغى وان عدم تحديد الملكية غير مقبول أيضاً وخاصة ملكية الأرض . كما أننا نشاهد بأن البابليين المتأخرين حدّدوا ، بكل صراحة ، تلك الحدود التي كانت للاسياد على العبيد بموجب فكرة الملكية . وأخيراً فاننا نجد في تعاليم يسوع الناصري مثل هذا الهجوم على الملكية بشكل لم يعرف من قبل ، فهو يصرّح بأن دخول الجمل في سم

الابرة أسهل من دخول صاحب الأملاك الكبيرة الى الجنة . وقد توالت الهجمات بانتظام على فكرة الملكية الكبيرة في الخمسة والعشرين قرناً الأخيرة . واننا اليوم بعد ١٩٠٠ من تبشير المسيح نجد جميعنا بأن العالم يشهد حركة كبيرة لتحطيم الأسس التي تقوم عليها الملكية في الحياة البشرية . وان الفكرة الشائعة « بأن الانسان يستطيع أن يتصرف في ملكه كيفما يشاء » قد عانت هزة كبيرة بنفس القوة التي عانتها الأفكار الأخرى التي تسند فكرة الملكية .

إلاَّ أن هذا العالم الذي وجد في ختام القرن التاسع عشر وقف موقف المتساءل في هذه القضية ، فلم يقدّم شيئاً كافياً أو يقرّ فكرة واضحة لتحديد المشكلة . وكانت أولى أهدافه حماية الملكية من جشع وفتك الملوك ، واستغلال النبلاء المجازفين ، وأولى عناية كبيرة لحماية الملكية الخاصة من الضرائب ابتدأت بفرضها الثورة الفرنسية ، إلاّ أن دستور الثورة الذي أقرَّ المساواة فرض هذه الضرائب على الملكيات الكبيرة التي كانت الأفكار ترمي الى حمايتها . اذ كيف يمكن أن يصبح الناس أحراراً ومتساوين، وهناك العدد العديد منهم لايملكون أرضاً يسكنونها ، ولا شيئاً يأكلونه ، وإنَّ المالكين لايطعمونهم ولا يسكنونهم ما لم يكدُّوا ويتعبوا ؟ مما لا شك فيه إن هذا الوضع دفع بالفقراء الى الشكاة .

وكانت من أولى النتائج السياسية المهمة لهذه الأوضاع ظهور جماعة جديدة وقفت في جبهة واحدة وأخذت تطالب بتعميم الملكية ، وكانت تهدف من وراء غايتها ، وبطريق آخر ، نتيجة أخرى . فعرف الناس ، بظهور هؤلاء ، جماعة الاشتراكيين المتطرفين — أو بعبارة أكثر تحديداً الشيوعيين الذين كانوا يدعون الى « الغاء » الملكية الخاصة إلغاء تامًّا وتمليك الدولة كل المرافق العامة .

* * *

وكان من الأمور المتناقضة أن نجد أناساً آخرين يبحثون عن الحرية والسعادة ، وهما الغايتان اللتان كان يبحث عنهما غيرهم بوسائلهم الخاصة ، فيقترحون من ناحية جعل الملكية

مطلقة بقدر الامكان وتعيين غاية لجميع الملكيات من ناحية أخرى. وإننا نجد تفسيراً لهذا التناقض اذا ما عرفنا أن الملكية ليست شيئاً واحداً، بل هي أشياء مختلفة متباينة .

* * *

وعند ما تطوّرت الحياة في القرن التاسع عشر أخذ النّاس فقط يدركون بأن الملكية ليست شيئاً بسيطاً، بل شيئاً معقّداً تختلط فيه قيم مختلفة وتنبعث منه آثار متنوعة . فهناك أشياء متعدّدة ( كجسم الانسان ، وأدوات الفنان ، والملابس ، وفرش الانسان ) تعتبر من الأملاك الشخصية التي لا يمكن سلبها . كما أن هناك أصنافاً كثيرة من الأشياء – كالسكك الحديدية ، والآلات المختلفة الأنواع ، والبيوت ، والأراضي الزراعية ، وزوارق النزهة ، وغير ذلك – تحتاج الى أن يوضع لكل منها تصميم يبين الى أي مدى وتحت أية قيود تدار ، اذا كانت ملكية خاصة ، والى أي درجة دخلت في عداد أملاك الدولة العامة ، وكيف يمكن إدارتها واستغلالها من قبل الدولة لتحقيق المنفعة الاجتماعية . وفي ميدان الحياة العملية أثرت هذه المشاكل في الأفكار السياسية ، وتطرّقت البحوث الى قضية مقدار كفاءة الدولة في الادارة . وقد فتحت هذه المشاكل الطريق لظهور مشاكل أخرى تتعلق بالنفسية الاجتماعية واتجاهات علم التربية . ومع ذلك ، والى هذا الحين ، كانت القوى التي تناوىء الملكية لا تزال تعتمد على العاطفة أكثر من اعتمادها على العلم .

فكان يقف في طرف الفرديون الذين يدعون إلى حماية وتوسيع حرياتنا المقررة على ما نملكه ، ويقف في الطرف الآخر الاشتراكيون الذين يرمون على اختلاف نزعاتهم الى تقييد الملكية والى تقليل حقوقنا المنبعثة من تملكنا للاشياء . وأما في ميدان العمل فنجد على الدوام دعاة معتدلين يقفون بين الفرديين المتطرفين الذين لا يسمحون إلاّ نادراً في فرض الضرائب لمساعدة الدولة ، والشيوعيين الذين ينكرون أية ملكية على الاطلاق . ان النظام الاشتراكي كما هو متعارف اليوم ، والذي يدعى بالجماعي يسمح ببقاء الملكية الخاصة بقدر معقول، ولكنه يدعو الى أن تتملك السلطة العليا في الدولة المرافق العامّة

تعليم والنقل والمناجم إلى استملاك الأراضي والاشراف على إنتاج الآلات الثقيلة اشابه ذلك.

* * *

وإننا نشاهد اليوم تقدماً مطرداً واتجاهاً واضحاً نحو دراسة الاشتراكيـة واقامتها أسس علمية . لقد غدا أمراً مفهوماً وواضحاً أن الانسان البدائي الأول لم يتعاون مع اء جنسه في المهام الاجتماعية الكبيرة ، ولهذا ظهر بأن كل خطوة يراد انجازها في سبيل ء أسس دولة متشابكة المصالح، وإن كل طريقة تنتهجها الدولة لتضع يدها على المشروعات اصة ، تحتاجان الى نشر التعليم وتحسين توجيه الرقابة والإدارة. إن الصحافة والأساليب بوية في الدولة الحديثة لا تزال جميعها بعيدة من ان تتلائم وهـذا الاتساع الكبير في ادين النشاط الاجتماعي .

ولكن بعد مضي فترة من الزمن أدّى التعارض بين مصلحة المستخدِم ومصلحة ستخدَم وعلى الأخص بين مصالح أرباب العمل الانانيين ومصالح العمال الناقمين ، الى انتشار ف عنيف بدائي من أصناف الشيوعية في أنحاء العالم ، وهو الصنف الذي اقترن باسم كس . لقد بنى ماركس نظرياته على أساس الاعتقاد بأن أفكار النـاس تتجدد وفق جياتهم الضرورية . وهكذا فإن هناك عقبة كأداء في المدنيات الحديثة تحول دون يق الرفاه لكافة الطبقات العاملة بله الكتلة الجماهيرية بصورة عامة . ونظراً للتقدم الذي سل في ميدان التعليم والذي جاء في أثر الثورة الميكانيكية ، فان الأغلبية العظمى من ال ستغدو طبقة واعية وستصبح أكثر عداء ( ولا ننسى انها طبقة واعية ) للاقلية ا كمة . وبطريقة معينة ستستولى هذه الطبقة العاملة الواعية على السلطة ، كما يتنبأ ماركس تدشن عهد دولة اجتماعية جديدة . إن العداء ، وان العصيان ، وان الثورة المتوقعة ، ياء يمكن فهمها فهماً كافياً ، إلاَّ انها سوف لا تؤدي الى اقامة دولة اجتماعية جديدة أو ذلك ، بل ستلد عملية هدم اجتماعية فحسب . والتجربة الروسية كما نشاهدها اليوم أثبتت ورة قاطعة ان الماركسية حركة غير منتجة .

لقد عمل ماركس على احلال الخصام الدولي مكان الخصام الطبقي ، ولذلك أنتج الماركسية على التوالي : الدولية الأولى ، والدولية الثانية ، والدولية الثالثة . ولكن نظرنا من النقطة التي ابتدأت منها فكرة الفردية الحديثة فيمكننا أن نحصل على نف الافكار الدولية . فمنذ أيام الاقتصادي الانكليزي الكبير آدم سمث والاتجاهات العا تعمل دائبة لتوجيه الأذهان نحو الحقيقة القائلة بأنه لا يمكن تحقيق الرفاه العالمي ب تعميم الحرية ، ورفع القيود التجارية . إن الفرديين بكراهيتهم للدولة كرهوا التعريفة الكمركية ، وشجبوا عراقيل الحدود ، وهاجموا كل أنواع التقييدات التي توضع للتضييق فكرة الحرية في المعاملات . ومن الممتع أن نرى اتجاهين فكريين ، متناقضين في روحه مختلفين في جوهرهما ، في مثل تلك الدرجة من التناقض والاختلاف التي عليها الأمر الحرب الطبقية الاجتماعية التي يبشر بها الماركسيون ، وبين الحرية التجارية التي دعا ا الفرديون من فلاسفة العصر الفيكتوري ، نقول من الممتع أن نراهما يتلاقيان في الن في الدعوة الى غايات مشتركة ترمي الى تحقيق التعاون العالمي في مختلف الشؤون الانسانية ! أي أعتبار للتحديدات والتقييدات التي يفرضها وجود الدولة . وان القياس في ه المواضيع متروك للإنجازات والانتصارات الواقعية أكثر من كونه ضد المسائل النظر

* * *

ولهذا أخذنا نحس بأنه رغم هذا الاختلاف الواسع بين المذهب الفردي والمذ الاشتراكي ، فانهما قسم من اتجاه عام ، اتجاه للبحث عن مجتمع أكثر رحابة وسعة ، و آراء وتأويلات سياسية لاختيار السبل التي تجمع الناس سوية للعمل مشتركين متعاوني وإن هذا الاتجاه ابتدأ ثانية في أوروبا وقوّاه إيمان الانسان بمثل الامبراطورية الروم المقدّسة وحشه عليه انحلال المسيحية ، ثم ازداد نمواً على نمو عندما بزغ عصر الاستكش الذي تطلع منه الانسان الى آفاق جديدة . . . آفاق تمتد الى أبعد من شواطىء البحر المتو لتضم العالم الواسع بأسره .

فؤاد طرزي

# اليكِ

أزجيتُ كلَّ الأغاني اليكِ ... لا للغواني
فأنتِ كلُّ الأماني
يا جنتي ، يا بلادي

***

إن غبتُ عنكِ ، يغيبُ جسمي ، وروحي قريبُ
مبادرٌ ، مستجيبُ
لما تُريد بلادي

***

عشقتُ منكِ الضفافا والريفَ ، والصفصافا
والنيلَ بالرزق وافى
يا جنتي ، يا بلادي

***

أحببتُ فيكِ الرمالا والعشبَ والصلصالا
والنبتَ يزهو جمالا
في جنتي وبلادي

***

يا ما أُحيلى السواقي ثرثارةَ الأشواقِ

مطلولةَ الآماقِ
تَروي جنان بلادي

***

النيلُ فيضٌ عميمٌ والريفُ زرعٌ كريمٌ
والمجدُ رمزٌ قديمٌ
لجنتي وبلادي

***

أبناؤكِ الصيدُ هاموا بالحسن فيكِ ، فقاموا
وأقسموا : لن يناموا
حتى تسودي : بلادي !

***

يا قِبلتي في سجودي يا غايتي ، يا وجودي
اللهُ قد قال : سودي
يا جنتي ، يا بلادي

***

لبّيك يا نور عيني قد دِنتِني أيَّ دينِ
فإن أتى اليوم حيْني
هتفتُ : تحيا بلادي

مختار الوكيل

# سلامة موسى

## دعامة قوية من دعائم الفكر العربي

سلامة موسى مفخرة من مفاخر الفكر العربي المعاصر بلا ريب ، ونجم لامع من نجوم الحضارة في الشرق . ويوم تؤرخ هذه الفترة من أدبنا العربي المعاصر سيذكر فيها اسم سلامة موسى في مجال التكريم والتبريز . بل سيقدّم اسمه على أسماء كثيرة لمعت وتلمع بفعل الأضواء التي سلطت عليها من هنا وهناك .

هـذا أديب عصامي يعترف في تواضع ، ومباهاة ، بأنه لم يفلح في المدارس المصرية ، وليست العلّـة علّته ، بل اللوم واقع على النظم العقيمة التي كانت تطبق في التربية منذ خمسة وأربعين عاماً ، واللوم مصبوب على الاستعمار الأجنبي والاستبداد الفكري الذي عمد على الدوام إلى كبت الرأي وإقصاء أبناء الوطن عن نور المعرفة الحقّـة .

إنه أديبٌ وقف حياته على الإرشاد والتقويم بطريقته الخاصة ، فظلَّ يكافح الاستعمار في جميع صوره ، وظلّ ينافح الاحتـلال ما وسعته الحيلة وما أسعفته القريحة والحجة ، وظلّ يمسك المشعل دأباً لإفساح السبيل أمام الشباب وصغار السن .

نقّـادة جريء مفحم ، ولذلك يلجأ منازلوه إلى التطاول والتهجم ، ولـكنه كرجل درّب نفسه على المنهاج العلمي ، يأبى أن ينحدر الى درك اللجاجة الوضيعة ، ويظهر استعلاءً على المطاعن التي يستهدف لها ، فيرد الشتيمة بالصمت ، ويجيب على الاهانة بابتسامة فيها معنى الزراية والاحتقار . وقد رماه معاصروه بكل مثلبة ونقيصة ، وسجلوا عليه أحكاماً مجحفة قاسية ، ولـكن سلامة موسى ظلّ كما هو ، رجل فـكر ، ورجل رأي ، ورجل عقيدة ، وظلَّ أديباً يتعاطى العلم فيخضد شوكته ، وفيلسوفاً يشيع مذاهب الفلاسفة بين العامـة ، وبقي دعامة تستند اليها النهضة الفـكرية المصرية العربية ، تذكر له فضله خمساً وأربعين سنةً طوالاً على الأدب .

سلامة موسى من أسرة ذات يسار وذات جاه، ولكنه آثر أن يبيع أرضه ويتخلى ن جاهه ليقدم لأبنائه ومواطنيه زاداً فكريًّا وأدباً خالصاً منتقى. وأصبح سلامة وسى اليوم فقيراً يقتات من عرق جبين شيخوخته، بينما غيره ينعمون في ألبسة من البزّ يكادون لولا الروح التي تدبّ فيهم، يُعدّون أمواتاً.

سلامة موسى من أساطين المجددين في اللغة العربية، ومن فحول المبتدعين لكلمات عبارات وألفاظٍ جرت على الألسنة جريان الماء في الوادي، وهو من أعلام المترجمين لمبشّرين والمبسّطين لأنه ينشد أن يجعل العلم والأدب والثقافة مشاعة للجميع: لفلاح لقرية ولطالب الجامعة وللموظف. وجميع كتابات سلامة موسى منشّطة للذهن، باعثة ي التفكير، دافعة الى الحركة، حاثّة على الانفعال، لأنه يكتب لأحياء لا لأموات، ؤثر دائماً أن يكون في الطليعة وأن يبقى في الطليعة على الدوام.

ولسلامة موسى نحو أربعين مؤلّفاً، قرأت معظمها وأنا بسبيل قراءة بقيتها. وأقسم ما من كتابٍ إلاّ زادني معرفة وغذّاني بفيض غامرٍ من الآداب الرفيعة، وأطلعني على ق ربما ظلّت محجوبة زماناً طويلاً، وله بذلك عليّ، فضل لا ينكر، فضل الأستاذ وجّه، والمعلّم الناصح، والأب المجرّب، والأخ الوفي، والصديق الصدوق. وليس ذا شعوري وحدي، بل هو شعور كثيرين ممن يصرفون معظم وقتهم في المطالعة تلاوة، أولئك الذين يبحثون اليوم عن مفاخر الفكر فلا يجدون إلاّ كلاماً مرصوصاً عبارات مسجوعة مترادفة، وآراء غثّة لا تشبع ولا تروي. واذا كان لكل كاتب درسة، فان المدرسة الأولى للدكتور طه حسين بك بلا منازع، والمدرسة الثانية منسوبة الأستاذ سلامة موسى بغير شك. ومن شاء أن يقول غير ذلك فهو مغالط لنفسه قبل يغالط الحقيقة والتاريخ.

وسلامة موسى كاتب يعرف قدر نفسه، بل لعله من أقدر الكتّاب معرفة لقدر النفس ما ذلك إلاّ لمجاهرته بالرأي في غير خجل ولا وجل، وحرصه على أن يكون كل ما يكتبه طوياً على جوهرٍ ثمين، فهو لا يعرف السوقية، ولا يعرف العربدة الفكرية، ولا يعرف انة الأدبية، ولا يعرف الدعارة الذهنية. ومن أسف ان هذه المذاهب جميعاً لها اليوم

مروّجون ودعاة، ولها أعلام تحمل اقلاماً وتكتب باسم الفن واسم الأدب واسم الصحافة. ولو لم يكن سلامة موسى يعرف قدر نفسه، لرأيناه يكتب عن غراميات الساقطات بدلاً من أن يكتب عن «جيته»، ولقرأنا له مقالات خسيسة كالتي تزخر بها منشورات دور الطباعة كل يوم. ولكن هذا المفكر الحر الأبي حريص على سمعته الأدبية وعلى جاهه العلمي وعلى خلق المربي، فلا يبيع نفسه وقلمه بثمن بخس.

إن سلامة موسى مفخرة خمسة أجيال في تاريخ مصر، وسيضيف خلفاؤنا الى تلك الأجيال أجيالاً أخرى كثيرة، لأنه أديب مبتدع، وصحفي موجه، وعالم مكين، ومفكر ممتاز. وحسبي أن أذكر في هذا الصدد أمرين أولهما: انني كنت أقدّم الأستاذ سلامة موسى للصديق الكبير الراحل المغفور له الدكتور سيد حسين سفير الهند في القاهرة، فجلسنا سوية قرابة ثلاث ساعات طرقنا فيها من ألوان الحديث صنوفاً متباينة متباعدة، بين فلسفة وتاريخ وأدب ودين واجتماع وسياسة. ولما حان وقت الانصراف أعرب السفير الفيلسوف عن إعجابه الكبير بسلامة موسى وتقديره لكفاءاته واستعداداته وذهنه الواعي المتفتح الكثير المسام.

والأمر الثاني أن مكتبة الكنغرس الأميركي رأت أن تترجم الى اللغة الانجليزية أنفس الكتب المعبرة المعاصرة في آداب العالم الحديثة. وكان في طليعة المؤلفات المصرية التي اختارتها للترجمة كتاب «تربية سلامة موسى» الذي سرد فيه سلامة موسى تاريخ حياته وعوامل تكوين شخصيته مع اشارة الى ظلال التاريخ القومي في بلاده، وقال الذين يهيمنون على ترجمة هذا السفر إنه كاف لأن يخلد اسم صاحبه في سجل الخلود.

فسلامة موسى لم يعرف الثقافة المهوّشة، ولا لقف ثقافته من المعلومات المبعثرة، ولا ترك سواه من الأدباء يقفزون سلم المجد الأدبي ويخلفونه على الأرض. إنه يسير الى الأمام، وخطاه ثابتة وثقافته تزداد اتساعاً، وماضيه يزداد مجداً، غير عابىء بما يقال عنه مدحاً أو قدحاً. فهو رجل يعيش حياة بسيطة لا يستهويه مال فان، ولا يطمع في ثراء أو جاه. حسبه انه يؤدي لوطنه جزية من عصارة فؤاده، وحسبه انه وهو في الستين من عمره لا يزال يكتب ويفكر ويناقش كابن الثلاثين أو الاربعين.

وديع فلسطين

# أريد زوجا أعبده

هذه قصة ليست مصرية . ولكن يجدر بالفتى والفتاة المصريين أن يجعلاها مصرية . جميع وقائعها حقيقية ولكنها غير مرتبة ترتيباً تاريخيـاً . هي عبرة لمن يعتبر .

ويلبور ريط ودورا دورثي من دايتون من ولاية أوهايو الأميركية ، كانا جنباً الى جنب في الثقافة الأولية في الكلية . وكانا فرسي رهان في النبوغ والنجاح الى أن تأهّبا للدراسة العليا : ويلبور للهندسة ودورا للطب . كلاهما لم يتما العقد الثاني من العمر بعد .

فتىً وفتاة احتكـا في أول الشباب فلا بدّ أن يقدح الاحتكاك شرر الحب . قال ويلبور ريط في أواخر أيام الدراسة في الكلية : ألا ترين يادورا انه يجب أن نتعاهد على الزواج قبـل ان نفترق : أنتِ للطب وأنا للهندسة لكيلا يذهب حب الصبا سدى ، ولا نلاقي بعده مثله .

فرمقته دورا بجانب نظرها وقالت : حقٌ ما تقول ولكني لا أخفي عليك أني أريد زوجاً أعبده .

فضحك ويلبور وقال : لعلك تريدين عجل هارون الذهبي الذي عبده بنو اسرائيل في سفح جبل سينا . أعاهدك أني في بضع سنين يكون عنـدي من الذهب ما يسبك عشرة عجول كعجل هارون .

فقهقهت قائلةً : خبتَ ظنـاً . لا أعبد المال بل العظمة أعبد . أريد زوجاً عظيماً .

— ما هي العظمة التي تعبدين ؟ فهناك عظمة الغنى وعظمة الجاه وعظمة المنصب و . . .

فقاطعته قائلةً : لا . لا . مثل ركفلر كثيرون ، ومثل البرنس اف ويلس عديدون، ومثل مكنلي رؤساء جمهورية سابقون ولاحقون . أريد زوجاً متفرّداً بعظمتهِ .

— عجباً . إذن ما هي العظمة التي تعنين .

— عظمة القوة .

— هذه كلمة مبهمة . الأسد قوي . والحوت قوي . وجليات الجبار قوي .

فضحكت هازئة : بئس ما تفهم . بسمرك أقوى من جميع الأسود والحيتان . ودب واحدٌ يصرعهُ . ولكن أوربا كلها كانت ترتعد فرقاً من دهائهِ .

— آ . . فهمت . تريدين عظيماً في السياسة .

— عظماء السياسة سلسلة في التاريخ لا تنقطع . أريد عظيماً لا عظيم مثله : سياسيًّا ماليًّا جباراً عفريتاً شيطاناً لا يهمني . أريد عظيماً يسحرني ويستعبدني والسلام .

فأطرق ويلبور هنيهةً ثم قال : فهمت : تريدين عبقريًّا نابغاً بشيء لم يسبقه إليه أحدٌ ولا يلحقه بهِ أحدٌ .

— قاربت أن تفهم قصدي . ولكن هذا لا يكفي . فقد يكون عبقريًّا في العلم أو في الشعر أو في الفن . ولكن العباقرة في هذه كثيرون يمرون في التاريخ مرور الشهاب في الجوّ العافي ثم ينطفىء .

— أوه .. فهمت . فهمت تريدين شهرة تملأُ الآفاق والأجيال .

— ليس هذا فقط . ليس في العالم الآن أشهر من تشارلي تشبلن الممثل الهزلي السنمائي هذه شهرة سخيفة تمرُّ مرَّ السحاب . ثم تنقضي أريد شهرة مجيدة أبدية .

— آ . آ .. فهمت . تريدين إلهاً تعبدينه .

— أي نعم . إلهاً أرضيًّا عظيم الطموح لا نهاية لطموحه . عظيم المطامع ولا حدود لمطامعه .

— لبَّيكِ . مهلاً أربع سنين الى أن أتم دراسة الهندسة هل تصبرين ؟

— أصبر رغم أنفي لأن السنين الأربع تستغرق كل صبري على دراسة الطب والمران على التطبيب .

* * *

ما انقطعت الصلات بين ويلبور ودورا . وكانا يتقابلان أو يتكاتبان . هو نبغ في الهندسة . وهي نبغت في الطب . هو توظف في شركة كارنيجي الحديدية وهي في مستشفى سنسناتي .

في ذات يوم ورد الى دورا خطاب من ويلبور يدعوها فيه الى حفلة افتتاح الجسر (الكوبري) العظيم الذي بناه فوق وادٍ عميق في داكوتا. فما ترددت دورا أن أسرعت الى المكان حيث رحب بها ويلبور وصَحْبُه من لجنة الاحتفال. ودهشت إذ رأت جسراً منبطحاً من ظهر جبل الى ظهر جبل آخر، وبينهما وادٍ نحو كيلومتر فضاء على عمق نصف كيلومتر، كأنَّ زلزالاً شقَّ الجبل شقين فحدث بين شقيه هاوية طويلة لا يمكن عبورها. فكان المسافرون يضطرون أن يسيروا على ظهر الجبل الواحد مسافة أميال الى أن ينثنوا الى الجبل الآخر عند اتصال الجبلين. فهذا الجسر اختصر المسافة بضعة عشر ميلاً

فلما رأت دورا ذلك الجسر وهو قائم على صقالات حديدية مندغمة في بطني الجبلين من هنا وهناك والمركبات الضخمة تمر عليه وهو لا يترنح، دهشت وقالت بعد صمت طويل:

« مرحى مرحى يا ويلبور. ولكن هل رأيت جسر بروكلن العظيم فوق النهر الشرقي

فابتسم ويلبور وقال: أذلك أعظم من هذا؟ هذا كيلومتر بين الجبلين وذاك نصف كيلومتر بين ركيزتيه. وهذا نصف كيلومتر فوق الهاوية وذاك ربع كيلومتر فوق الماء.

— ولكن على ذاك تسير القطرات الحديدية متتابعة بلا انقطاع.

— إذا كثر المارة على هذا أضفنا اليه مثله أعرض منه لإنشاء خطوط حديدية عليه.

— لا أبخسك حقك يا عزيزي فهو جسر عظيم. ولكن في الدنيا عظائم أعظم. هل رأيت برج ايفل!

— سمعت به ورأيت صورته

فقالت متدللة: وهل كنت تطلع على المجلة الطبية؟ ...

— نعم نعم قرأت عن عمليتك العجيبة في استئصال سرطان من تحت اللسان من غير أن تخرقي مؤخر الفك الأسفل — حقاً انه لعمل عظيم

فقالت خازرة العينين: ترى هل تحدَّث العالم عن جسرك أكثر مما تحدَّث عن عمليتي الجراحية.

فهزَّ ويلبور رأسه وقال: هذا الجسر أول عمل من أعمالي وفي المستقبل القريب سيكون لي عمل أعظم. فان شركة سكة حديد بانسلفانيا ستنشىء محطة عظيمة في نيويورك بعد

منها نفقٌ تحت نهر الهدسن الى نيوجرسي يكون طوله نحو خمسة أميال . فهذا الجسر الذي ترين الآن إنما هو شهادة لي عند الشركة بأني كفء لإنشاء المحطة وحفر النفق العظيم الذي ستمر فيه ٤ أو ٦ أزواج من الخطوط الحديدية . وسيكون أعجوبة العالم . فصبراً .

— أدعو لك بالنجاح لكي أعبدك.

***

بعد فترة من الزمن احتفلت شركة سكة بنسلفانيا الحديدية بافتتاح محطتها الجديدة العظمى في نيويورك وبافتتاح النفق العجيب تحت نهر الهدسن العميق العريض هناك عند مصبه في الأقيانوس الأطلسي . وملأ المحتفلون العديدون قطاراً عظيماً عديد المركبات . فدرج بهم من المحطة التي لا تسعها بقعة الأزبكية والعتبة الخضراء وساحة الأوبرا في القاهرة . وهي تسفل عن مستوى سطح الأرض تحت بطن النهر نحو ١٥ متراً لكيلا يكون الانحدار في النفق محسوساً على مدى بضعة أميال .

ودرج بهم القطار الطويل بربع سرعته المعتادة لكي يشاهدوا النفق جيداً . وكان النفق مُضاءً كأنه في ضوء النهار . وكانت دورا الى جنب ويلبور ريط الذي تولى عملية انشاء المحطة وحفر النفق ، وهما صامتان ، ودورا تلتفت الى هنا وهناك الى أن راعها تباطؤ القطار حتى صار أبطأ من سلحفاة . فقالت . ويحي . هل حدث حادثٌ فاجع يا ويلبور حتى أخذ القطار يتوقف ؟ فقهقه ويلبور قائلاً : لا تخافي يا عزيزتي . يسير القطار ببطء كي لكي يشاهد المحتفلون اتصال شطري النفق

— ما ذا تعني بشطري النفق

أعني بشطريه كشطري بيت من الشعر يتصل المعنى بينهما ... ان الشركة اشترطت أن يتم النفق في مدة معينة قصيرة . ولكي أضمن إتمامه في الميعاد شرعت في حفره من الجانبين — من نيويورك ومن نيوجرسي في وقت واحد - فهزىء بي زملائي المهندسون حتى خولهم . وقالوا إنه مهما كان الرصد دقيقاً فلا يلتقي شطرا النفق في مكان واحد. ولا بدَّ أن يشرد كلٌّ منهما عن الملتقى . وكانوا ينذرون الشركة بالخسارة الفادحة في هذا

العمل الذي كانوا ينعتونه « بالعمل الأرعن » . هه لقد قاربت مركبتنا ملتقى شطري النفق فانظري .

ونظرت دورا حيث أشار ويلبور فاذا المصابيح الكهربائية هنـاك أسطع من سائر مصابيح النفق . تضيء ذلك المكان إضاءة ممتازة . ودهشت إذ رأت أن الشطر الواحد يشذ عن الشطر الآخر نصف قدم فقط . أي أن هنـاك بين الجدارين المتصلين تفاوتاً . وبقيت مبهوتة الى أن بعُـد القطار عن المكان فالتفتت الى ويلبور وقالت : — « مدهش » ولطمت خده بقبلة سُـمعت فرقعتهـا في المركبة والتفت النظّـار الذين سمعتهم يقولون : حقـاً إنه لعمل مدهش . ماذا يقول المستهزئون الآن

وأجاب ويلبور على هذا السؤال : ألفت نظر حضراتكم الى أننا نحن الآن تحت ١٥ يردة من قعر نهر الهدسن وتحت سطح الماء خمسين يردة . فما شذّ حفر الشطرين لا سمتيـاً ولا أفقيـاً أكثر من نصف قدم والخط تام الاستقامة كما ترون .

***

لما انتهت الحفلة وعادوا الى المقصف قالت دورا : لو لم تسبق أنفاق كثيرة هذا النفق لقلت أنه العمل الأعظم الفذ الذي لامثيل له .

فضحك ويلبور وقال : لا أنكر أن عمليتك الجراحية التي أحييتِ بهـا الميت عملية فذّة لم تُـسبق . كيف نجحت بها .

فمايلت دورا إعجاباً ودلالاً وقالت : كنت أبحث عن رصاصة المجرم التي رأيتها بأشعة رنتجن تحت يمين قلب المصاب . واذا بنبض قلب المصاب قد وقف وتنفسه انقطع . فانتهرت مُـنشّـق البنج بسخطٍ . فحاول تحميس الصدر باللطم فلم ينجح . فأسرعت وأعملت المشراط لشق طريق كفي الى القلب وجعلت أضغط بقبضتي على التجويفين بالتناوب لـكي يعود القلب الى خفقانه . وفي بضع دقائق عاد يخفق وعاد الصـدر يصوّب ويصعّـد . وانتظم التنفس ثمّ عدت الى اتمام العملية واستخرجت الرصاصة . ثم لأمت الجروح .

— لا ريب أنكِ طرتِ فرحاً ومشيتِ مرحاً

— لا . لأني خفت أن يتعفن الجرح بسبب أني فيما كنت أخيطه سقطت فيـه من حاجبي قطرة عرق .

أوه . لا تخافي . ان عرقك لأطهر من دم ذلك الجريح . وقد شفي والحمد لله وطنطنت الجرائد بعمليتك العجيبة . هذا عمل فذ حقيقة لم يُسبق إليه . أنتِ أصبحت المعبودة .

— مثل هذا أريد منك فأعبدك

فتململ ويلبور باسماً وقال : حتى متى تطوّحين بي .

— حتى يبلغ طموحك الى حدّ يعز على غيرك البلوغ اليه .

* * *

ما مضت أشهرٌ على هذا الحادث حتى طنطنت الجرائد بأن مسألة الطيران قد انحلت إذ توفق الأخوان ويلبور وأورفيل رَيط من دايتون الى اختراع جهاز أثقل من الهواء يندفع في الهواء بقوّة محرك يدير مراوح دوراناً سريعاً . وإنهما قد طارا في هذه الطائرة بعض أميال في بضع دقائق . واستغربت دورا أن ويلبور لم يعد يتصل بها لا مكاتبة ولا مقابلة. فقالت بنفسها ان ويلبور لما طفق ينجح طفق « يثقل » . « عرف الحبيب مقامه فتدللا » فصبرت على مضض .

وكان المحامي اسبورن الشهير صديقاً لويلبور ريط فجاءه في تلك الأثناء وقال له : هل علمت أن شخصاً يدعى ستنفورد قدَّم الى مكتب تسجيل الاختراعات عريضة يطلب فيها تسجيل اختراع طيارة باسمه

فبغت ويلبور وقال : كيف ذلك

— أبلغني مدير مكتب التسجيل أن ستنفورد هذا قدَّم مع العريضة رسم الطيارة ونموذجاً صغيراً لها وذكر أن عنده الطيارة طبق هذا النموذج . أفما طلبت أنت تسجيل اختراعك .

— لا . لأني لا أود أن أحتكر استغلال شيء نافع للعالم . أما ستنفورد هذا فقد اختلس اختراعي بلا شك اختلاساً لأنه كان يطلع عليه بصفة كونه مهندساً ميكانيكيًّا وصانعاً ميكانيكيًّا موظفاً عندي . وقد صنع معظم أدواته حسب التعليمات التي كنت أمليها عليه .

— إذن فقد أهملت أنت فضلك وحقك في اختراعك لكي لا تحتكر نفعه فتولاه

غيرك ليحتكر نفعه لنفسه . وقد علمت أن فتىً من بيت هنز ملك النحاس اتفق مع ستنفورد على تأليف شركة لاستغلال الاختراع . وهينز هذا يموّل المشروع . وأنت خاسر حق الاسم وحق الشهرة وحق الاستغلال . ولم يعد لك حق بأن تستعمل طيارتك لأنها لم تصنع بمصنع ستنفورد وهينز

— لله منه لصًّا . ما خطر لي أن ملاطفته لي كانت حيلة لسرقة الاختراع . فما رأيك .

— دعه لي فأنا أقاضيه وأزجه في السجن لصًّا وابتز منه غرامة سارقاً .

ورفع اسبورن قضية على ستنفورد وهينز وأثبت أن طيارتهما مقتبسة من نفس طيارة ويلبور ريط . وزجهما في السجن وما خرجا الا بكفالة ريثما يصدر الحكم بالقضية .

وكانت دورا تقرأ كل يوم بعد آخر شيئاً عن تقدُّم الطيران حتى قيل أن ويلبور ريط سيعبر أميركا من نيويورك الى كاليفورنيا بطائرته . فجُنّ جنونها لأن ويلبور أغفلها . فكتبت اليه تطلب منه أن تصحبه في رحلته هذه الجوية . فردَّ عليها بأنه كان يود أن يصطحبها لولا مخافة الخطر عليها من هذا الطيران الرهيب .

وما مضت مدة حتى طنطنت الجرائد بعبور لندبرج الأوقيانوس الأطلسي من نيويورك الى باريس . وكان ويلبور لما يرحل بعد رحلته المذكورة . فكتبت دورا اليه لنكايته انها تواقة الى الطيران الطويل المدى . ولذلك ستكتب الى لندبرج أن يصطحبها معه في رحلته الثانية .

* * *

وما لبثا أن اجتمعا مشتاقين فقالت : لله منك . اتدع لندبرج يتفوَّق عليك بالطيران .

فابتسم ويلبور وقال : ليس لندبرج الذي عبر الاتلانتيك يا عزيزتي بل الطيارة التي اخترعتها أنا هي التي عبرته . سترين الف لندبرج يتفوقون عليه . لندبرج عبر الاتلانتيك في ٣٨ ساعة وسترين من يعبره في ١٩ ساعة ومعه ركاب وأحمال وأثقال . فهلاً

وكانت دورا تسمع صامتة مبهوتة . فقال لها أنعدين هذا الاختراع فذّاً أم تريدين مني أفذ منه ؟

— ماذا تقول بالمنطاد ؟

المنطاد أخف من الهواء وهو سلحفاة الجو . أما طائرتي فأثقل من الهواء وأسرع من الريح وستماشي الشمس فوق سطح الأرض . تسبح بك الظهر ويبقى الوقت ظهراً فوق رأسك حتى تعودين الى حيث قمت .

— حقّاً إنه لإختراع عجيب وانه سيخلد اسمك وشهرتك . ولكن ألا ترى أن اللاسلكي أعجب منه وأعظم شأناً .

— من اخترع اللاسلكي

— ماركوني

— لا . اشترك في اختراع اللاسلكي كثيرون أظهرهم في اختراعه ثلاثة ، فاراداي الذي كان أول من قال بالأمواج الكهرطيسية . ثم السير اوليفر لدج الذي كان يدرّب ماركوني . وما كان ماركوني إلاّ تاجراً بالعلم . فالسير اوليفر لدج استنبط . وماركوني تاجر . ولو كان السير اوليفر لدج يحب المال دون العلم لكانت شركة ماركوني الآن تسمى شركة اوليفر لدج . فاللاسلكي اخترعه ثلاثة أشخاص على الأقل في ثلاثة أزمنة وفي ثلاثة أمكنة . أما طيارة ريط فاخترعها شخص واحد في زمن واحد وفي مكان واحد ( أخي اورفيل كان مساعدي في العمل الميكانيكي ) .

بقيت دورا برهة تفكر صامتة الى أن قالت : ألا يمكن أن يزاد على طائرتك شيء آخر أعجب وأعظم اختراعاً .

— يمكن التحسين طبعاً . ولكن يبقى الطيران طيراناً كما اخترعته . وقد لاحت لي أفكار أخرى بشأن استعمال الطيران ولكنها أفكار تقض مضجعي .

فأجفلت دورا وقالت : كيف . ماذا ؟

— لاح لي أن تستعمل الطائرة في الحرب لالقاء القنابل لدك المدن وتدمير العمران وافناء الانسان . فيتحول اختراعي هذا من نعمة الى نقمة . وقد يتمادى الميكانيكي الشرير بأن يصنع قنبلة ضخمة مجنحة كطائرتي يقذف بها محرك كالسهم المارق الى حيث يسددها القاذف فتندفع وحدها بلا سائق . والويل للعالم اذا جعلت طائرتي عاملاً من عوامل الشر حينذاك ينقرض الجنس البشري . ألا يفزعني هذا التخيل ؟ .

فربتت دورا على خده باسمة وقالت : لا تجزع يا عزيزي . ليست طائرتك التي تقوض العالم بل العالم الشرير يستخدمها لتقويض نفسه . وذلك خير عقاب له جزاء لشره . ولكن قل لي . ألا يمكن أن يقوم اختراع أعظم شأناً من الطيران .

— قولي لي . ماذا يمكن أن يخترع بعد فأتطوع له ؟ أتفكرين أني أسافر الى المريخ ؟

— لا أدري ماذا في عالم الغيب

— ان ظهر اختراع أعظم افتجحدينني وتعبدين المخترع الآخر، فاندفعت اليه وعانقته وأمطرت على خديه القبلات وقالت : اكتفيت بهذه العبقرية الخالدة والشهرة المجيدة . ان اسم رايط سيبقى متردداً في الآفاق والأزمان مدى الدوران . هذه هي العظمة التي أعبدها. بقي لي أن أسألك هل كنت تعرف ان ستنفورد شريك هينز هو ابن خالتي ؟

— كلاّ لم أكن أعرف ذلك . وسواء عرفت أو لم أعرف فاطمئني . لقد بذلت كل جهدي في أن أنقذه من ورطة حمقه ولؤمه . لقد سامحته وأخبرت اوسبورن المحامي أن يعكس الدفاع وينقذه . إني مسامحه من كل قلبي فاطمئني .

— ويحك . هل ظننتني جئتك لكي أتشفع به عندك ؟ تبًا له : بل جئت لكي أكفك عن السعي الى انقاذ هذا اللص النذل . حاذر أن تعفو عنه . يجب أن يعاقب الخائن . سأمضي الى اسبورن المحامي وأحرّضه عليه .

— ويحك يا دورا . أود أن تكوني من حزب من « يحب أعداءه ويبارك لاعنيه » لا من حزب من ينتقم

— ليس هذا انتقاماً بل هو تأديب . ولماذا لم تسجل أنت اختراعك وتحفظ حقوقك ؟ ان هذا الاهمال ذنب تعاقب عليه .

لا . لا . لا أريد احتكار استغلال منفعة الجمهور . لقد سجلته أخيراً لا لكي أستغله . بل أطلقت أيدي المتمولين في إنشاء معامل لصنع الطيارات على شرط أن يكون لهم عشرون بالمائة من الكسب والباقي للعمال يوزع عليهم بنسبة استحقاقهم . أليس هذا أفضل يادورا

فانقضت عليه دورا وضمّته الى صدرها وأمطرته قبلات لم ينته إلاّ بقولها : لقد توّجت عظمتك العقلية بعظمتك الخلقية . ان عظمة الأخلاق لأعظم من عظمة الذكاء . وشهرتها أوسع وأدوم . الحمد لله إني وجدت معبودي .

فقال ويلبور : وأنا أحمد الله أني وجدت معبودتي قبلك ، معبودتي التي أوحى لي حبها عبقريتي .

نقولا الحداد

# قلبي

املئي قلبي بما شئتِ املئيه   يا صروف الدهر ما قلبي بوانِ
أحرقيه ، يا أماني أحرقيه   سوف لن يعبأ قلبي بالزمانِ

***

كم بكى، كم ثار، كم أحصى شجونه ؟   ثم كم عاد لينسى كلّ شيْ ..
فاسألي الأحزانَ كم أدمت جفونَه ؟   واسأليني هل شكا يوماً اليّ ..

***

هائماً كالبرق يطوي فلواتِه   بين دمع المزنِ أو قصف الرعودِ ،
هوذا قلبي بأقفارِ حياتِه   مجبراً يسبر أغوار الوجودِ .

***

ايه يا قلب وهذا العيش سرّ   يا ترى بالله من يغزل يومك ؟
رعشة أنتَ ، وإدلاجٌ وفجرٌ   من ترى خطّ على جفنيك حلمك ..

***

وتلوّى الليل من حولي وأوجس ،   يسأل الأشباح عن دنيا شرودي
لا تسل يا ليلُ فالفجر تنفّس ،   وأيادي النور قد فكّت قيودي

***

عشت في الغار طيوفاً تتبدّد ،   عشت عيش الظل ، عيش الأدمع ،
أنا دهرٌ كل يوم يتجدّد   خمرتي نفسي ودنّي أضلعي .

**عرفان الذهبي**   ( القاهرة )

# ستيفن ليكوك

## ١٨٦٩-١٩٤٤

### سيرة حياته بقلمه

في شهر مارس عام ١٩٤٤ مات ليكوك فخسر بموته الناطقون بالانجليزية شخصية جد محبوبة فقد كان « ليكوك » عالما ممتازاً . وكاتباً فكاهياً من الطراز الاول . أدخلت كتبه السرور على الملايين من الناس . وإن القارىء ليجد في السطور التالية مقتطفات من قصة حياته وإنه ليجد بين هذه السطور ومضات من فكاهة « ليكوك » التي لن يجاريه فيها أحد ..

كان أبي وأمي كلاهما من « هامشير » . وكان آل « ليكوك » يقيمون في جزيرة « ويت » حيث كان جدي يملك بيتاً . ولكني أحسب ذلك الجدّ كان يريد الجزيرة كلها لنفسه . بل كان لا يريد لأولاده أن يحتشدوا فيها .

ولهذا فقد خرجوا جميعاً يجوبون أقطار الدنيا . وينتحون أبعد نواحيها .

وقد أجدت عليهم أعنابهم التي زرعوها في جزيرة « ماديرا » . والنبيذ الذي عصروه من تلك الأعناب مالاً كثيراً .

واستتبع هذا الغنى أن لا يعمل أحدٌ من آل « ليكوك » عملاً ( أعني عملاً مثمراً مجزياً ) .

وظلّ الحال كذلك ثلاثة قرون . حتى جاء العصر الذي ولدتُ فيه فتفرّقنا شيعاً . وكان علينا أن نعمل ، بل أن نعمل أدنى الأعمال درجة ، حيث يجزى العامل على الساعة التي يعمل فيها . وهذا مما يحط من قدر أي رجل ممن نسلتهم أرض « هامشير »

وآل « ليكوك » كما أسلفت القول كانوا يعملون في جزيرة « ماديرا » يصنعون النبيذ ويبيعونه . ولا يزال البعض من أبناء عمومتي يقيمون هناك . ويصنعون ما كان يصنع آباؤهم .

ومنذ بضع سنين أخرج كبيرهم كتيباً وصف فيه أنبذة « ماديرا » . وتكلم عن آل « ليكوك » . وجاء في ذلك الكتيب أنَّ أول من تسمى باسم « ليكوك » كان أجيراً من الأجراء في « لندن » يعمل لكسب قوت يومه . وقد بعث بابنه يتعلَّم في مدرسة مجانية . ثم أرسل بعد ذلك « صبيًّا » في سفينة كانت وجهتها « ماديرا » .

ففكر أيها القارىء فيما قصصته عليك، وقل لي — وحق أبيك — كيف أستطيع أن أبدىء القول وأعيده — وهذه كل معلوماتي — في كيف شبَّ ذلك الصبيّ وكيف كبر، وكيف اقتنى المزارع الكبرى، وكيف جمع الثروة والمال ؟

* * *

أمَّا قوم أمي، وهم آل « بتلر » فكانوا أكثر مالاً وأعزَّ نفراً، وان كنت لا تستطيع أن تعدهم من أهل « هامشير » . ذلك لأنهم لم يكونوا — في العصر الذي أتحدَّث عنه — قد قضوا في « هامشير » إلاَّ خمسين ومائة عام .

وكانوا ، وما زالوا ، يقيمون في بيت اسمه « بري لودج » يقوم فوق تل يشرف على القرية القديمة . قرية « هامبلدون » . وهي قرية عاصرت وباء الطاعون الذي ظهر عام ١٦٦٦ و « هامبلدون » اليوم هي للاعبي « الكريكيت » وهواة تلك اللعبة بمثابة « مكة » عند المسلمين يولُّون وجوههم شطرها أينما كانوا .

ففي تلك المدينة بدأت تلك اللعبة « المقدسة » . وأقول « المقدسة » وأستغفر العرف — ذلك لأني لا أجد نعتاً يؤدي وصف الرجل الانجليزي لتلك اللعبة إلاَّ كلمة « مقدسة » .

وكما قلت آنفاً . فإنَّ جدي كان يريد « جزيرة ويت » كلها لنفسه . ولذلك فإنَّه بعث بأبي إلى جنوب إفريقيا يوم تزوَّج بأمي ، وكان إسمها « أنيس بتلر » وهي ابنة القس « ستيفن بتلر » . وكان هذا عام ١٨٦٦ أي قبل أن يجعل الألماس والذهب بلاد جنوب إفريقيا مثابةً للهموم والأحزان .

وكانت تلك الأيام أيام المراكب الشراعية ، وأيام المسافات البعيدة ، وأيام الوداع الطويل. وقد ذهب الزوجان الى حيث يريدان الاقامة . في عربات تجرها الثيران ، وكان كل

شيء بدائيًّا كما نراه الآن في لوحات «السينما» عند عرض فلم حياة الرّحالة « ليفنجستون » وأفلام إفريقيا المظلمة .

ولكن جوّ إفريقيا لم يكن جوًّا ملائمًا لأمّي ، بل كان مستحيلاً عليها الاقامة فيه . ثمّ جاء الجراد فأتى على ما زرعوه . ولذلك فقد عاد الزوجان الى « هامشير » مرّة أخرى.

وفي عام ١٨٧٦ رحلت أمي الى « كندا » ومعها أطفالها الستة لتلحق بأبي الذي سبقها الى تلك البلاد ليعمل في الزراعة .

وكانت مزرعة أبي تحوي زروعًا مختلفة ففيها أنواع الحبوب ، وفيها الكلأ ، وفيها من الماشية الضأن والخنازير ، وفيها الدجاج ، وفيها غابة لمن شاء أن يحتطب .

وكان أبي لا يعرف عن الزراعة شيئًا . وكان أجيره واسمه « اولد تومي » أقل منه خبرة ودراية .

وكان أبي يجمع بين الجهل بالزراعة وبين الخمر والكسل . وعلى الرغم من أنّ أمّي كان يجيئها قليل من المال تدرّه عليها مزرعة لها في انجلترا ، فإنّ مزرعة أبي قد استحالت أرضًا قاحلة لا تنبت الزرع . وركبه الدين فرهن الأرض وثقلت عليه أحمال الربا ، كما ثقلت عليّ تلك الأحمال من بعده .

وكنّا ونحن أطفال لا نبرح المزرعة ، إذ كنا أصغر من أن نقدر على التجوّل ولو شئنا لما استطعنا. ذلك لأنّ أقرب جار لنا قد كان بين مزرعته ومزرعتنا نصف ميل ، فلم يكن من دأبنا إلاّ أن نذهب الى الكنيسة في أيام الآحاد ، وإلاّ أن نجيب دعوة الداعي في قرية « ستون » بين حين وحين . ولولا غدوّنا ورواحنا الى المدرسة لظللنا طول عمرنا في البيت لا نبرحه .

وعلى قيد ميل منا قامت مدرسة تضيئها أضواء لطيفة ، ولها فناء ، وفيها مضخة للماء . وكانت تجمع بين الصبية والبنات . وكانوا جميعًا أبناء قوم مهذبين . وهم قوم فقراء ، ولكنهم لا يحسّون بفقرهم ، وتحسبهم أنت أغنياء من التعفف .

وكان يقوم بالتدريس في تلك المدرسة معلمان : رجل وامرأة . وكان كل شيء في المدرسة ينبئك بالبساطة ويحدّثك عن الوقار والاحتشام .

وكانت مواد التعليم هي القراءة والهجاء والكتابة والحساب ، والجغرافيا . ولم تكن تشوب التعليم تلك المواد التي تفسد على الناس عقولهم في زماننا هـذا . والتي تحدث بين طلاب الجامعات الشغب والهياج .

والأمور التي تتنافى مع القواعد الصحيـة كانت تبدو لنا — بحكم العادة — أشياء عادية . فكنا نبصق على ألواحنا ، ثم ننظفها بأيدينا . وكنا نشرب جميعاً من كوز واحد . وكان الصبية والبنات تجمعهم الفصول ، ويفترقون حتماً إذا خرجوا الى فناء المدرسة .

وقد ثبت في ذهن أمي أنّ بقاءنا في المدرسة ضارٌ بلغتنا ، غير مقومٍ لألسنتنا ، بل هو مؤدٍّ بنا الى العي والحصر . وكنا في الواقع قد انحدرنا وساءت تعبيراتنا . ونسينا اللهجة القويمة لهجة أهالي « هامشير » . وكنا قد بدأنا نقول : “who all” , “these here” , “them there” , “most always„

ولذلك قد قررّت أمي أن تقوم هي على تعليمنا على الرغم من عملها الكثير المضني مع الأطفال الصغار والخدم ، وفي القيام بحاجات البيت والمطبخ .

وكانت أمي قد أتمت تعليمها في انجلترا ، وأضافت اليه حبها وولعها بفنون الأدب ، وهما حبٌ وولع لازماها طوال حياتها التي بلغت التسعين عاماً .

ولكنا لم نكن نلقي بالاً إلى تعليمها . ذلك لأننا كنا نعرف أنها أمٌ وليست معلمة .

وعلى هـذا قد توقفت تلك الدروس . وعادوا بنا الى المدرسة حيث سعدنا بلقاء مدرّسة خاصة ظللنا حوالي سنوات أربع نتلقـى عنها علوماً ما كنت أستطيع أن أؤديها لتلاميذي يوم كنت معلماً في عشر سنين .

وكنا نخرج من عزلتنا أحياناً، كخروجنا في يوم الزينة مثلاً ، وإجابتنا دعوة للغداء في قرية قريبة ، وذهابنا لمشاهدة حفلات لعبة « الكريكيت » .

وإن أنس لا أنسى يوم تمّ الخط الحديدي ، ويوم وصل أول قطار فقد كان وصوله حادثاً تاريخيًّا . وقد سبقه رنين الأجراس وصفير الصفارات .

وقد تبع مسير القطارات أن رأينا فاكهة « البرتقال » لأول مرة . ثم تبع ذلك أيضاً أن استغرقت مدينتنا في النوم مرة أخرى حتى أيقظتها بعـد سنين زمارة السيارة ، تحمل السائحين والسائحات .

وكان ركوب القطار عندنا نحن الأطفال وسفرنا الى « تورنتو » كأنه سفر الى « بلاد العجائب » .

وكان والدي في ذلك الحين قد بدأ يعاقر الخمر حيناً بعد حين. وكانت أُمّنا تخفي علينا هذا . وكان من عادة أبي أن يبرحنا في المساء فيذهب الى القرية المجاورة ليعود الينا وقد لعبت برأسه الخمر ، وقد عقد الكرى بمعاقد أجفاننا .

وكلما لجّ أبي في غيه وزاد في سكره ، تقلّص ظلّ المزرعة وانكمش . وكلما زاد الدّين وغشيت سماءَ بيتنا غاشية من الصكوك التي لم يؤدّ حسابها ، ضاق بنا العيش واسودّت جوانبه .

وكما أسلفت القول فإن أمنا كانت تخفي كل ذلك علينا عدة سنين مستعينةً بالصبر والصلاة .

وانقلب أبي بفعل الخمر من أب رحيم الى عاتٍ متجبر لا يلقى منه الكبار من إخوتي إلا الضرب المبرح ، وإلاّ العذاب الأليم .

وقد ترك هو البيت عام ١٨٨٧ ولا شك أنه كان يريد العودة ، ولكنه لم يعد أبداً ولم أره أنا بعد ذلك أبداً . . .

وقد عاشت أمي على ما تُغله المزرعة القديمة ومقداره ثمانون ريالاً في الشهر ؛ ذلك لأنها كانت وقفاً غير قابل للبيع .

وكانت أمي تعيش على هذا القدر الضئيل من المال هي وأولادها الثمانية مضافاً اليهم العجوز « تومي » وزوجته – وكانوا يعملون عمل الحرّاس .

وغادر أخواي الكبيران بيتنا الى غير عودة فأصبحت بعد سفرهما رأس العائلة . وكنت يومئذٍ في السابعة عشرة من عمري . وكنت كطالب في المدرسة، ثم في الجامعة، وكمدرس بعد ذلك ، لا أستطيع أن أزور المزرعة إلاّ في زمن العطلة وإلاّ في أيام متفرقة . ثم أرحت أمي وأرحت نفسي من عذاب تلك الأرض فتركتها نهباً مقسماً للراهنين والدائنين . ولست أعرف أين استقرّ بتلك الأرض المطاف . وكان آخر عهدي بها يوم دخلت الجامعة في مستهل عام ١٨٨٢ .

وما شهدت في تلك الجامعة إلاَّ تقاليد الخُلُق الكريم ، وإلاَّ فيضاً لا ينقطع من حسن المعاملة ، فلا جلد ولا ضرب ولا سخرة . وكنت إذ ترانا يومئذٍ تعرف أننا أبناء بيوت كريمة لم تعرف المهانة الطريق الينا .

وهنا أُسائل نفسي أمن الخير للطالب أن يُلحق بالقسم الداخلي بالمدرسة وهو يسكن غير بعيد عنها ؟ وهل في ذلك القسم الداخلي ما لا يجده في القسم الخارجي ؟

وهذا سؤال مرَّ بخاطري ألف مرة ومرَّة . والجواب عندي بالايجاب ولكنه إيجاب مقيد بقيودٍ وحدود . فان الضرر الذي يلحق بالطلبة في مدرسة داخلية غلب عليها سوء الادارة لأسوأُ مائة مرة ومرة من كل نقص يجده الطالب في مدرسة خارجية .

فعلى الآباء أن لا يبعثوا بأبنائهم الى مدرسة داخلية إلاَّ إذا استيقنوا من نقاء العيش فيها من الوجهة الخلقية . فان من ساء خلقه في مدرسة داخلية لا علاج له إذاً أبداً .

وكذلك لا خير في مدرسة لا همَّ لها إلاَّ جمع المال ممن يقدرون على دفعه لتخرج في معاملها نماذج في الأناقة يتبارون في مضغ الكلام ، ويتسابقون في البذخ والسرف .

أما المدرسة الداخلية التي خلت من تلك العيوب فلها خيرها ونفعها . فهي التي تخلق من الطالب رجلاً لا يعوِّل في الدنيا على أحدٍ وهي التي تشفيه من مرض التعلق بالأهل والوطن ، وهي بذلك تعلم المرء كثيراً من القيم الجديدة لمسائل الحياة . فهي تعلمه مثلاً أن الصاحب عند الشدائد هو الذي يريك ماذا تأخذ من كل أمر وماذا تدع .

والطالب الحديث العهد بالمدرسة هو في أشد الحاجة الى مثل هذا الصاحب ، إذ هو كالبيت الجديد الذي لم يستو على سوقه .

والطالب الحديث العهد بالمدرسة هو أكثر استجابة لكلمة طيبة يتلقاها من فم أستاذه والى مسة رفيقة على الكتف . وانه ليرى في ابتسامة البواب العجوز معنى من معاني الدعاء والتشجيع

وان الصحبة الصادقة التي تقوم بين الطالب وصاحبه أو أصحابه لهي أبعد مدًى وأدوم عهداً وأعمق غوراً من الصحبة العادية .

وليس يخطر في ذهني وأنا أقول هذا القول تلك الصحبة التي تقوم بين طلاَّب كانوا

في المدرسة ثم جمعت بينهم ظروف العيش فعاشوا طوال حياتهم مجتمعين . إنما تمر بخاطري ذكرى الذين كانوا طلاباً ثم فرّق الدهر بينهم . ثم عاد فجمع بينهم بعد عشرين أو قل — إن شئت — بعد أربعين عاماً . فرُّ السنين لايكاد يحس ، وتذكر الماضي يصل في لحظة بين ذلك الماضي البعيد وبين اليوم الذي الذي أنت فيه .

وقد اتفق لي أن كنت ألقي إحدى محاضراتي في إحدى المدن الأمريكية الكبرى ، وقد أعقب واحدة من تلك المحاضرات حفلة استقبال . وهناك قيل لي : هل تذكر « مستر ليون » الذي كان من زملائك في الجامعة منذ خمسين عاماً ؟

هل أذكره ؟ ياله من سؤال سخيف ! وكيف لا أذكره وقد كان زعيم فرقة « الكريكيت؟» . وإني لأذكره يوم كان فتى بائن الطول مديد القامة . وإني لأعدها تحية منه بل خير تحية أن يذكرني هو .

فلما لقيته نسيت كل من حولي . وغفلت عن كل ما حولي . فقد سألتني سيدة عن رأيي في رواية « جالسورذي » التي سماها « القرد الأبيض » ( وكنت لم أسمع عنها شيئاً) وقال لي أحد الحاضرين : لقد كان واجباً عليَّ أن استمر في محاضرتي نصف ساعة أخرى .

ولكن « ليون » كان عندي أبرز شخصية في الحاضرين . وإني لأعترف أن السنين الخمسين قد غيرته . وإنه لم يعد بعد طالباً كندياً . ولكنه أصبح أمريكياً من أصحاب الأعمال . وقد نقصت قامته قدماً أو أقل قليلاً ، وذاب الشحم منه فأصبح نحيلاً ضئيلاً .

وأثنى على محاضرتي وسألني عن حال الكلية التي كنا فيها. فقلت له: إن البناء قد أزيل ثم أعيد بناؤه ليسكنه الساكنون لقاء أجر . ثم وقفنا نذكر أيام ذلك البناء الذي كان على وشك السقوط ، ونذكر الريح التي كانت تهب على وجوهنا من ناحية الشجر ونحن وقوف في فناء المدرسة . وأبعدتنا تلك الذكريات عن «جالسورذي» و «قرده الأبيض» .

(وبعد) فقد جرت بي العادة أن أكون كثير التنبؤ . ذلك لأني وجدته أدنى الى السلامة وأقل عسراً وأبعد أثراً من الحقائق .

وكنت أثناء السنين الطويلة التي كنت أحاضر فيها في جامعة « ماك جيل » أقول لتلاميذي : دوّنوا قولي هذا واذكروه أيها السادة : سترون بعد مرور خمسين عاماً كيت

وكيت . أو : إنه بعد انقضاء نصف قرن سترون نهاية كل شيء ترونه الآن تقريباً .

فكان لكلماتي هذه أثرٌ هائل في عقول تلاميذي . ذلك لأنهم كانوا لا يستطيعون الوصول الى سر إدراكي لما سوف يقع .

والخطأ الوحيد الذي ارتكبته هو أني جعلت مدى نبوءاتي قصيراً جداً . إذ جعلتها كلها وشيكة الوقوع . فقد بدأت التنبؤ عام ١٩٠١ . وبذلك سوف تتحقق أول نبوءة حوالي عام ١٩٥١ .

ومن المحقق أن كثيراً من التلاميذ القدامى قد خلوا اليوم مكانهم . وحتى الذين بقوا منهم قد طووا مراحل الشباب ووهن العظم منهم .

ومع ذلك فلن أرتكب هذه الحماقة . حماقة النبوءات قصيرة المدى مرة أخرى . وان الناس ليتنبأون منذ الآن بما سوف يحدث بعد الحرب . ويبدو أن بناء الجماعة كلها سوف يعاد بناؤه . من قمة الرأس الى إخمص القدم أو من إخمص القدم الى قمة الرأس ...

ومن الناس من سوف يبدأ بناؤه من أحد الجانبين . ومنهم من سوف يبدؤه من الجانب الآخر . ومن المسائل العظمى التي تشغل بال المفكرين مسألة التعليم . ويقول الناس إن التعليم يجب أن يعاد بناؤه من القمة الى السفح . وهم يقولون : إن التعليم سوف يكون غير بادٍ للعيان . فلن تستطيعَ أن تقول عن رجل من الرجال أمتعلم هو أم جاهل ...

ويبدو انه قد شكلت منذ الآن لجان كثيرة قوامها كبار رجال التعليم في البلاد. وإحدى تلك اللجان تعنى بعلم الحساب وقد وصلت في المراجعة الى جدول الضرب. وإلى الرقم ٩ مضروباً في ٩ إن شئت التحديد . . وقد يصدون عن مراجعة الباقي من أرقام الجدول. وواحدة أخرى من تلك اللجان تعنى بمراجعة مسائل القسمة المطوّلة . والمظنون أن الأمر سيطول بهم ...

ولكن كبرى مسائل ما بعد الحرب هي بالطبع مسألة تجديد بناء المدن . ويبدو أن هذه المسألة قد أصبحت عامة في جميع أنحاء العالم .

أما مدينتنا فلاشكَّ أنَّ إزالتها واجبة ، فقد استعصى فتقها على الراتق . فشوارعها كلها تتقاطع وكلها تخالف الطريق السويّ .

وأنا إذا نظرت إلى بيتي وددْتُ لو أمسكت بالمعول من فوري، وسوَّيته بالأرض. وهو بيت حقير عديم القيمة.. ويشاركه في هذه الحقارة كل البيوت المعدَّة للإيجار. وإني لأراها في حاجة الى أن ترتفع طبقاتها السفلى من سطح البيوت الى قمتها. وذلك لكي يتخللها الضوء . . .

وعلى أية حال فقد شكلت لجنة من الخبراء بدأت عملها من الأساس. عنيت أول ما عُنيت بمسألة المجاري، ونظرت في هل هي صالحة أم غير صالحة. وهي لا بدَّ ناظرة بعد ذلك في مسائل الحرير والنشع، ثم في مسألة الفضلات والقُمامة. ويقوم بدراسة المسألة الأخيرة عالم خبير بفنه.

ولكن هذا كله في حاجة الى الوقت وإلى أن تعمل الفؤوس عملها.

(وبعد) فلنعد الى قصة حياتي: ولدت في العصر الفكتوري. بل في صميم ذلك العصر. وهو عصر قد بعد به العهد. عصر يؤرخ بالأمبراطورية الفرنسية في إبان مجدها، كما يؤرخ بالكاتب الانجليزي «ديكنز» وهو يكتب آخر كتاب من كتبه. يوم كان «ديكنز» على حافة القبر، وكنت على حافة المهد.

وكانت الدنيا يومذاك دنيا واسعةً عريضةً. وكانت هناك قارات برمتها لم تزل مجهولة وكانت «إفريقيا» مجرَّد رسم تخطيطي. وكانت المحيطات لم تشقها السفن بعد.

وقد خلَّى ذلك العالم مكانه اليوم لعالم جديد، عالم تطنّ فيه أصواتٌ تجيء من كل أقطار الدنيا، ويهدِّد الموت سكانه تهديداً عامَّا شاملاً.

وإنَّ الصور المتحركة لترينا اليوم مواكب الحوادث تمرّ أمامنا بترتيب وقوعها. ولكل واحد منا حوادثه ومواكبه.

فموكب حياتي أنا مثلاً يبدأ بشواطىء البحر في جزيرة «ويت» ثمَّ يتحوَّل الى قرية «بورت شستر» وقلعتها الرومانية. ثمَّ تتغير معالم الرؤيا فأرى «الملكة فكتوريا» تركب القطار وتطلّ برأسها منه. ثمَّ يتحولُ الموكب الى باخرة من طراز ١٨٧٦ تشق المحيط الأطلسي. وهي تحمل قوماً مهاجرين إلى «كندا».

ثمَّ يمر بنا الموكب على مزرعة بالقرب من مدينة «أونتاريو». ثمَّ إذا بالموكب

يتحوّل بي الى مدرسة داخليـة في إحدى جامعات « كندا » . والعميد يبـدو وقوراً في لحيته والطلبة في زيهم على الطراز القديم .

ثمّ إذا بنا ننتقل الى جامعة « شيكاغو » ثمّ الى جامعة « ماك جل » حيث ظللت هناك ستّـا وثلاثين سنة دراسية .

وإني لأذكر الفصول الدراسية في شهر فبراير ، والطلبة نائمون . وأنا أوصي بعدم إقلاق راحتهم وأن يتركوا في نومهم هانئين . ذلك لأنّ المحاضر كان يحاضرهم في الآثار القديمة .

ثمّ إذا بالموكب ينتقل بنا الى زمان الحرب العظمى ثمّ إذا بتلك الحرب الى انتهاء . ثمّ إذا بي أسافر من جديد لأحاضر في الولايات المتحدة . ثمّ إذا بي أعود إلى ساحة جامعة « ماك جل » مرةً أخرى . ثمُ اذا بي أعتزل العمل . ثمّ إذا بي أمنح درجة من درجات الشرف كعالم ممتاز ... ثمّ إذا بالحرب الثانية يندلع لهيبها .

هذه صورتي . وهـذا موكبي من صبح حياتي الى غسقها . وإني لأذكر أني سمعت منذ نصف قرن خطيباً يخطب القوم في يوم منح الجوائز في جامعة كندا العليا ويقول لهم : إنه يرى أمامه في أشخاص الخريجين الناجحين ساسة المستقبل وشعراءه وقوّاده وزعماءه .

ولقد خُـيل إليّ يومئذ أن بعقل ذلك الرجل دَخلاً ، فانّ من كان يراهم أمامه إنما هم نحن لا قوماً سوانا .

ولـكن ثبت أنه كان محقـا في قوله . ولو أنّ بعض من عناهم كانوا أوفر حظّـا مني . ذلك بأنهم عاشوا في عالم كله سحر وشعوذة ، فهم أينما وُجدوا أخذ بيدهم الآخذون من عظماء القوم . ويبدو أنّ الوهم يغذي نفسه ...

وإني لأذكر على مرّ السنين واحداً من أولئك المحظوظين ، كان يلقى من المعجبين به إعجاباً اختُـصّ به وحده دون الناس جميعاً .

ولقد جلست الليلة الماضية أتعشى ، وكان بجانبي الأستاذ « بيوكان » فقال لي : إنّ فلاناً ( وهو يعني ذلك المحظوظ ) عالم من العلماء ، وهو قد أوتي مقدرة عجيبة كعالم باللغات . فقلت له :

أحق ما تقول ؟ قال نعم. فقد سألته مرةً : هل تظن أن كلمة Snob بالهندية هي نفس كلمة Knabe بالألمانية ؟

قلت : وماذا قال هو ؟

— قال : انه لا يدري ...

ثم جلس صاحبي مطمئناً في جلسته وبه من التقدير لهذه الدقة العلمية ما به ... وإن في الناس كثيراً من هذا الطراز ممن تغشى سماء حياتهم غشاوة من الوهم.

وإني لتحضرني بهذه المناسبة قصة زنجي عجوز من «كارولينا» ظلّ طوال عمره ينتظر أن يُسمح له بأن يكون منتخِباً . فلما جاء يوم الانتخاب ووضع ورقته في الصندوق ، ظلّ ينتظر الخطوة التالية وقتاً طويلاً . ثم لما رفع عن عينه غشاء الوهم قام يتساءل ويردد سؤاله . هل هذا هو كل شيء يا حضرة الرئيس ؟

قال الرئيس : نعم هذا هو كل شيء !

وهكذا هي الحياة . فالطفل يقول : عند ما أصبح صبيًّا ، والصبي يقول عند ما أكبر حتى إذا كبر قال : عند ما أصبح زوجاً . فاذا تزوج قال : عند ما أعتزل الخدمة . فاذا اعتزل الخدمة أحسّ بريح باردة تهب ، وعرف أنه أضاع كل شيء .

وما ذلك إلاّ لأننا لا نعرف معنى الحياة إلاّ في الساعة الأخيرة ، وما الحياة إلاّ غزلها الذي ننسج منه نسيجنا يوماً بعد يوم . وليست الحياة أن نعيش مؤملين الانتقال الى أحسن أو أن نعيش على خوف من أن تسوء الأمور .

وهذان الأمران : أن يكون المرء دائم التطلع الى أمام ، وأن يكون قلقاً على أمور لم تحدث بعد ، وقد يمكن أن لا تحدث أبداً .

هذان الأمران يجعلان الحياة كالهيكل العظمي لا لحم فيها ولا دم .

فاذا استطاع المرء ، وجب عليه أن يستمتع بكل لحظة من لحظات حياته .

وإنه لأمر مستغرب أن نصرخ مجمعين طالبين أن يتوقف الفلك عن الدوران ، يحثنا الشوق إلى أرض دائمة الأصائل ، لا يغشاها ليل ولا يحوطها ظلام أو يحدونا الحنين الى وادٍ ظليل، نقرأ في ظلال أشجاره ديوان شعر .

ولكن قد يكون هذا القلق وهذا الاضطراب هما الدافعان لنا على القيام بنصيبنا من الكفاح. وإن الغالبية العظمى منا عندما ينظرون — وقد تقدّمت بهم السنّ — إلى ماضيهم يحسون إحساس الرضا على أنهم قد استطاعوا أن يقوموا بنصيبهم في الحياة. وهم يتماجون بقولهم إننا — على الأقل — استطعنا أن ننجو بأنفسنا من عذاب السجون، ومن أهوال مستشفى المجانين، ومن مخاطر ملاجىء العجزة والمساكين.

وعلى الرغم من هذا فعلى المرء أن يظلّ في حذره فقد يجنّ الشيوخ أحياناً.

ولكننا على أية حال لا نودّ أن نبدأ رحلة الحياة مرة أخرى.

وإني إذ أنظر الى الماضي إلى الليالي الطويلة، ليالي الدرس في المدرسة الداخلية، ليالي انكبابي على القاموس، أعجب العجب كله كيف فعلت هذا.

وهناك أعمال كثيرة كان المرء يؤدّيها، وهو اليوم لا يستطيع أن يؤديها. كما أنّ هناك أشياء كثيرة يرتعد الشباب، وترجف قلوبهم وهم يترددون في القيام بها وهي تبدو بسيطة سهلة لمن تقدمت بهم السنّ، ففي مسائل النساء — أريد أن أقول البنات — ترى المحبّ من الشباب يلجأ الى التجسس، يحدوه الأمل حيناً، والخوف والعجب أحياناً، ترفعه كلمة، وتخفضه غمزة حاجب.

ولو عقل صاحبنا الشاب ونظر الى الأمور كما ينظر اليها الشيخ لاستطاع أن يصل حباله بحبال أية فتاة يشاء.

وكل ما يجب أن يفعله هو أن يتقدّم الى الفتاة، وأن يقول لها: يا آنسة فلانة إني لا أعرفك، ولكن جمالك الفاتن قد سحرني، فحلّ عقدة من لساني، واضطرني الى الكلام. فهل تستطيعين أن تتزوجيني بعد ظهر اليوم، وليكن موعدنا في منتحف الساعة الرابعة مثلا.

وإني أعني بقولي هذا أن هذا الأسلوب في هذه الناحية من الحياة قد يوفّر على المرء سنين من الرعب والفزع...

والشباب كله جميل في عين أولئك الذين علتهم كبرة. والفتيات في أبسط مظاهرهنّ، هنّ — في نظرهم — جميلات. وذلك بما أضفت عليهم الطبيعة من مفاتن. واللاتي حرمنَ الجمال هنّ — على الأقل — صغيرات السن.

أما الشيخوخة فقد كتب عليها أن تعيش في عزلة.

وعلى أية حال — حتى لو تسامحنا في القول — فإن الشيوخ صحبتهم مملّة . إذ أنهم لا يقدرون على أن يصمتوا . وقد لاحظت هذا في النادي الذي أغدو اليه .

وهم إذا بدأوا في رواية قصة من القصص رأيتهم في كل واد يهيمون . وأنت على أية حال عارف بالقصة ، ذلك لأنها هي القصة التي قصصتها أنت عليهم ليلة أمس ..

وطريق الحياة الذي رسمته لك رسماً تخطيطياً من الشباب الى المشيب ، تستطيع أنت أن تترسمه بنفسك ، متهدياً بأسلوب الخطاب الذي يخاطبك به الغرباء .

واني لا أزال أذكر عامل عربة النوم الذي ناداني لأول مرة بقوله : يا دكتور ! وكذلك لا أزال أذكر ذلك الذي رفع من قدري فسماني « القاضي »

وكذلك لا أزال أذكر من ناحية أخرى سائق السيارة الذي فتح الباب لي وقال : حاذر في نزولك أيها الشيخ الوالد . . .

وكم قاسيت يوم تحدّث عني أحد المخبرين في جريدته ، وسماني « السيد العجوز » . ويوم قال عني أني بسيط الزي ، بسيط المظهر .

وكم كانت الضربة قاصمة للظهر يوم قالت عني إحدى الصحف أني جاوزت السبعين من عمري . وهي كذبة بلقاء مفضوحة . تنم عن نذالة قائلها . ذلك لأني لم أكن أبلغ من العمر يومذاك إلاّ سبعة أشهر وتسعاً وستين سنة .

واليوم يناديني المنادون بقولهم : أيها الشيخ الوقور . وسوف يحصدني الموت بمنجله يوم يدعونني بالشيخ الأكبر . والناس يعنون بهذا القول في بلادنا كل رجل اشتعل رأسه شيباً ، وظل حتى الثمانين من عمره لا يعرف الطريق الى السجن .

وهناك شيء يمكن أن يقال — حتى في هذا المقام — عن عقلية الشيخوخة :

إن الشيوخ يصبحون أكثر رأفة ورحمة في حكمهم على الآخرين . ذلك لأنهم قادرون على أن يحسنوا الفهم حتى لو كانوا غير قادرين على غفران خطيئات الآخرين .

فإذا سمعت أنا عن رجل يسرق سجل أموال المتجر الذي يعمل فيه فاني أعرف أنه — بعمله هذا — يرنو بعينه الى خزانة المتجر .

وإذا قرأت أن رجلاً يحرق متجره أيقنت أنه يرمي الى قبض مال التأمين .

والشيخوخة محتملة إذا لقينا عملاً نعمله . كأن نعنى بالأولاد والأحفاد . أو إذا عشنا على ذكريات الأعمال الصالحة التي أدّيناها . أو إذا قمنا بأي عمل قد يبعث في النفس الأمل . فيقول الواحد منا يومئذ : سوف تخلدني أعمالي الصالحة ...

( مترجمة )

مبارك ابراهيم

# شهيد السلام

في رثاء « المهاتما غاندي » . قديس القرن العشرين ، وزعيم الهند الذي كافح الاستعمار كفاحاً مريراً حتى قهره بالعصيان المدني والمقاومة السلبية .

وقد لقي غاندي حتفه يوم ٣٠ يناير من عام ١٩٤٧ وهو يتأهب لصلاته الروحية ، حيث أطلق عليه أحد الفوضويين من مواطنيه أربع رصاصات قضت لساعته .

وعلى هذه الصورة تنتهي حياة رجل كرس حياته وجهده لازالة الفوارق الدينية بين الهنود ، وحث العالم على فعل الخير ونشدان السلام وخدمة الانسانية ! !

---

إيهِ « غاندي » وأنت من عالم الأر    واح ، أطلقت للورى نجواكا
هزَّ منعاك ساكني الأرض طرًّا    فبكوا فيك زاهداً نسّاكا
تبع الخاشعين في حلل الأبـ    رار ، وحياً منزلاً وملاكا
كيف يعدو عليك بالفتك باغٍ    نَصب الموت مكمناً وشراكا ؟ !
دبَّر الأمر للجريمة غدراً    حين لم تلمس الفرار يداكا ؟ !
يا شهيد السلام في « الهند » هل أجـ    دى على القوم ما أردتَ هناكا ؟ !
أنت يا موئل الضعاف ، وتعزا    ءَ قلوبٍ تثيرها رحماكا
جسم حرٍّ تقوده نفس حرٍّ    ترتجي الدهر للعفاة فكاكا
وتروم الحياة أمناً ورشداً    لترى الشرق ناعماً ضحّاكا
ونسجت الثياب من عزمات الـ    شعب حصناً رعيته ووقاكا
هابه الخصم بالسلاح وبالجيـ    ش ، وأضحى بيأسه يخشاكا
أملٌ خالج الفؤاد ، ومجدٌ    لم يبن عنه في الزمان سواكا

بيد أن الخلاف ما زال في الدن    يا غماراً لأهلها وشباكا
قام من قبلك النبيُّون بالأمـ    ـس، ينادون بالخيور وراكا (١)
بذلوا الأنفس الكريمة للحقّ    بشيراً ومنذراً صكّاكا (٢)
فاستحال النداء في طلب العيـ    ـش عداء مدمِّراً وهلاكا
هكذا الناس، شأنهم من قديم    عمروا الكون عنوةً وانتهاكا
يتبارون بالخسيس وأن قلّ    ويزهون بالحضيض امتلاكا
وطماح الجسوم ظلّ مع الأقـ    ـوى، ولو كان ظالماً سفّاكا!!

* * *

رحم الله ذلك الجسد الوا    هن، كم خاض للسلام عراكا
ضمّ جنباه في الجوانح قلباً    ما لوجدانه شبيه يُحاكى
صابراً صبر مؤمنٍ لا يبالي    أجَنى الوردَ أم جنى الأشواكا؟!
وقضى، والمنون أبلغُ هادٍ    ربَّ موتٍ يُذكي الجماد حراكا
ان موت العظام في الكون ميلا    د خلود يحيلهم أفلاكا
وأديم السماء أفسح للرو    ح، وأبقى من الوجود سماكا (٣)
عبثاً تنشد السلام على الأر    ض، وترجوه للأنام حباكا (٤)
عبثاً تنشد السلام وقد أغـ    ـرى بصرعاه عُصبةً فتّاكا!!

(القاهرة)

عبد السلام رستم

---

(١) الخيورج خير — دراك — متلاحق، متصل
(٢) صكاك — شديد القرع
(٣) السماك — ما سمك به الشيء أي رفع
(٤) الحباك — الطريقة وفي معنى آخر الحظيرة المندوده

## على هامش

# المعرض الزراعي الصناعي

### السادس عشر

مضى ثلاثة عشر عاماً منذ آخر معرض زراعي صناعي أقيم في سنة ١٩٣٦ حيث حال قيام الحرب العالمية الثانية دون انتظام دورة إقامته كل خمس سنوات ، والآن وقد افتتح المعرض الزراعي الصناعي العام دورته السادسة عشرة وجب على كل مصري أن يلمس التقدم الذي وصلت اليه مصر إبان هذه الفترة وذلك بمشاهدة مختلف المعروضات الزراعية والصناعية والتجارية . وبمقارنة المعروضات الموجودة الآن بما كان لدينا في الماضي يمكن أن نخلق رأياً عاماً يؤمن بنهضة بلاده ويفكر في مستقبلها ويعمل على المساهمة بنصيب من العمل المنتج الذي يعود عليه بالفائدة كما يعود على مجموع المواطنين من سكان وادي النيل ، فاذا وجدت فكرة إمكان التقدم لدى أفراد هذا الشعب وشعر بقدرته على العمل المتقن ولو بعد تعليم فني وتدريب عملي ، أمكن للقادة وأصحاب الرأي أن يجدوا لدعواتهم الاصلاحية صدى ولأفكارهم منبتاً خصباً ، فكثير من المفكرين يدعون الى العناية بالصناعة مثلاً ولكنهم لا يجدون من يلبي دعوتهم وينفذ توجيهاتهم لانغراس بعض الافكار البالية في أذهان الكثيرين أو لعدم إيمانهم بالمستقبل استناداً الى عوامل اليأس التي طبعت في نفوسهم من تأثير ما كانت عليه البلاد في الماضي وعدم ايمانهم بامكان التغيير بل التغيير السريع مع أنه اذا توجهت العقول والسواعد المصرية بالتعاون مع رأس المال المصري في خلق الصناعات وتركيزها وتقويتها لخطونا خطى سريعة .

والمهم أن يدرك زائر المعرض أنه في خلال الفترة التي نهضت فيها البلاد سياسياً واقتصادياً بثورة سنة ١٩١٩ على الانجليز استطعنا إنشاء بنك مصر ومؤسساته وأنه ابتداء من سنة ١٩٢٠ حتى الآن أمكن إيجاد بعض الصناعات القومية مثل صناعات غزل القطن وحلجه

وعصير زيته ، وتبييض الأرز وعمل الأعجنة الغذائية وحفظ المنتجات الزراعية ودبغ الجلود وصناعة الأحذية وصناعة الأسمنت والسكر — وطحن الغلال ، وصناعة الأثاث ، وصناعة مستخرجات الألبان ، وصيد الأسماك ، وبناء السفن ، وتكرير البترول .

فهذه الصناعات التي أصبح الآن لها مكان ملحوظ لم يكن من المحتمل أن تظهر وتنمو الا بعد تحرر المصري من الجهل الذي فرضته عليه السياسة الاستعمارية لكي تظل مصر وعماد الحياة فيها للزراعة ، أو بالأحرى القطن الذي يصدر الى مصانع لانكشير . وأمام زائر المعرض الآن أمثلة بارزة على أنه في الامكان الآن أن نخطو خطوات سريعة في التقدم ، وعلى القادة المصريين أن يضعوا البرامج والأسس للمشروعات الكبرى ، وعلى الأفراد أن يعاونوهم بسواعدهم وقدرتهم الانتاجية حتى نثبت أننا بدأنا في التحرر مما لقنه إيانا الأجنبي في قاعات الدرس وهو أننا أمة زراعية لا تنجح فيها الصناعة . وفي المعرض الآن برهان قاطع على أن ربط المصريين بعجلة الزراعة فقط فيه شيء كثير من الخطأ والتضليل . ومن العوامل التي لا يصح أن نغفلها إصدار التعريفة الجمركية في سنة ١٩٣٠ الذي ساعد على قيام بعض الصناعات وتوسيع المشروعات التي كانت قائمة ، كما يلاحظ أن الحرب الأخيرة قد أوجدت صناعات جديدة في مصر مثل صناعات الجبن الجاف وتعبئة الخضروات وورق اللف والعلف وقطع الغيار وأدوات الغزل والجلوكوز والنشا ، ولا يعيبنا في الفترة الحالية أن تكون أثمان بعض السلع مرتفعة عن مثيلاتها المستوردة أو أقل منها جودة في ناحية ما ، بل العيب أن تعتمد بعض الصناعات في بقائها على التعريفة الجمركية أو الاعانات والحمايات الحكومية إذ يجب أن يلاحق أصحاب المصانع الحالية أحدث الأساليب العلمية التي تظهر في العالم ويدخلوها في صناعاتهم مع زيادة مقدرة العامل الانتاجية ورفع مستواه الفني والاجتماعي ، فاذا تم هذا استغنت مصر عن التغني بالماضي الكريم بحاضر أكرم وأعظم .

ذهبت إلى المعرض وكلي حماس وشوق وإيمان بأن هذا العمل من أجل الأعمال النافعة وأعظمها شأناً وأجلها خطراً ففيه يمكن أن يلمس المرء مجموعة الجهود التي قام بها الزراع والصناع والتجار ليس من جهة الدقة الفنية المبنية على الأساس العلمي ولا من جهة قدرة اليد المصرية وقوتها ، بل من حيث الذوق العام ووضع الانتاج بالطريقة العلمية التي

تجذب النظر وتدعو الى التدقيق والفحص والمقارنة والتعلم .

ولقد أعجبت بكثير من المعروضات ، وليس هناك زائر شاهد المعرض ثم لم يجد ما يرتاح اليه ويتذوقه ويستفيد منه إذ أن مبانيه المختلفة قد ضمت كل ما يحتاج اليه الناس مهما اختلف مستواهم في التذوق أو في الثقافة أو في العمر ، فكما حوى ما يعجب الرجل ويستهويه ففيه للمرأة ما يرضيها وللطفل ما يلهيه . ولقد شاهدت بعض القرويين وقد وقفوا مشدوهين أمام بعض المبتكرات العلمية أو الرسوم البيانية لا يدرون كيف تحققت تلك المعجزات ، بينما رأيت أحد الفنانين وقد وقف أمام لوحة زيتية وقد استغرق في تأملاته سابحاً في تحليله للأضواء والظلال ولم يحس بأمواج الناس التي تمر به تنظر نظرة عابرة إلى ما نسي فيه نفسه ، بل أن فيهم من لم يلتفت إلى ما ينظر اليه ، وشاهده متأملاً فرثى لحاله وأشفق عليه .

* * *

إذا قصدنا مشاهدة القسم الصناعي بالمعرض وجدنا قسمين الأول وهو الخاص بمعروضات بعض الشركات الكبرى «بنك مصر — عبود» ويتميز بالاعتناء بضخامة المباني وارتفاع الدرجات الموصلة إليها دون الاهتمام بإبراز الأعمال نفسها التي تعتبر في مقدمة الأعمال الجيدة في مصر ، فلا أدري هل كان ذلك نتيجة لاعتقادهم أن جمهور المشاهدين يلمس أثر عملهم خارج المعرض أم لعدم حاجتهم الى الدعاية والإعلان وكلا الأمرين لا ينهض سبباً لمثل هذا التقصير الذي لا يمكن اغفاله لأنه إذا كان الجمهور يعرف من ذات نفسه ومن احتكاكه آثار جهودهم في الحياة اليومية فلم يكن هناك داعٍ إذاً للاشتراك في المعرض إذ أنه مع وجود كثير من المعروضات فإنها لم تلبس الاطار اللائق بها ، كما أهمل فيه الجانب الاحصائي الذي يبرهن على أهمية أعمالهم . وكذلك جانب النماذج المتحركة التي يحتاج إليه أغلب الزائرين ، ولو مررنا بمعروضات شركات أخرى لوجدنا أن العناية كانت أكبر والاتجاه نحو الأسلوب التعليمي في العرض كان أقوى شأناً وأعظم أثراً ، فلا يمكننا اغفال اهتمام شركة مصر للهندسة والتعدين مثلاً بهذا الاتجاه فهي لم تكتف بابراز معروضاتها في إطار

لائق، بل قدمت عرضاً سينمائياً عن جهودها في بعض الصناعات في ثلاث فترات يومياً ، وبمثل هذه الطريقة يمكن أن يخرج المشاهد بفائدة كبيرة لا تقدر .

بل ان احدى شركات الأسمدة « نترات الشيلي » فوق اهتمامها بحسن العرض العلمي وإبراز النماذج البارزة وامتلاء مبناها بالصور التوضيحية لمختلف العمليات الخاصة باستخراج السماد من صحراء شيلي، وتأثير عناصر السماد على النباتات المختلفة في فن بديع وإتقان تغبط عليه ، إذ بها تخرج علينا بتمثال لشخصية قروية مزوّدة بآلات لالتقاط الأصوات وارسالها مما ييسر التحدث بين هذا التمثال وجمهور الزائرين فيجد المثقفون بغيتهم ، وكذلك الزراع .

أما القسم الثاني . وهو القسم الخاص بالصناعات الصغرى فكان الاهتمام فيه واضحاً نحو الناحية التجارية. إذ امتلأت سراي الصناعة بمنتجات الشركات الصناعية الصغيرة مما يجعل الزائر يشعر أنه لا يمرُّ في المعرض بل يسير في « شارع فؤاد الأول » أما العرض ودقته وأهميته التعليمية فليس فيها إلاّ القليل . وليس هناك من يدل الزائر على الصناعة وطريقتها، بل هناك من يروج للسلعة بأساليب الإغراء على المشترى في الوقت الذي لم يقصد فيه بالمعرض أن يكون مجموعة للمحلات التجارية .

***

أما سراي الزراعة فقد ازدحمت بنوعين من المعروضات الزراعية ،الأول وهو ما يشغل الجزء الأكبر من الصالة . والرأي عندي أنه لا أهمية تذكر له إذ هو عبارة عن صناديق وضع بها انتاج بعض الزراعيين في مصر في المحاصيل المختلفة كالقمح والشعير والذرة والفول . . . الخ وهذه الناحية من العرض لا تفيد الزراعيين شيئاً ، إذ مهما قيل إن إنتاج إحدى المزارع يتفوق على إنتاج المزارع الأخرى من حيث الشكل أو الحجم فالنوع واحد ولا فضل لزارع على آخر في هذه الناحية ، لأن الزارع لا يمكنه ادعاء انتاج نوع جديد يتميز بخصائص معينة أو يصلح لجو أو تربة أو يقاوم إحدى الآفات مثلاً .

ولو كان المقصود أن تكون هناك منافسة بين الزراع يتعين فيها مجهود المحسن والمقصر فهذا بلا ريب أمر فيه كثير من النظر ؛ إذ من المعلوم أن كل زارع ينوي الاشتراك في

المعرض يستعد بمعروضات إعتنى بها عناية خاصة وعومات معاملات في الزراعة والتسميد والتنظيف والانتقاء مما لا يمثل الحالة الحقيقية في البلاد . فلو كان كل الزراع الذين عرضوا علينا انتاجهم لديهم هذه المقدرة في إنتاج محصول أراضيهم كلها بهذا المستوى من الجودة والاتقان لكانت مصر أول الدول أجمع في إنتاج كل المحاصيل الزراعية . وما دامت هذه المحاصيل لا تمثل المتوسط العام للدولة بل تمثل جزءا اعتني به فإن المشاهد العادي من جمهور الفلاحين قد ينسب لنفسه تقصيراً لم يقم به ولا يستطيع أحد إثباته عليه .

***

وبودي أن يتجه كبار الزراع وصغارهم على السواء إلى مشاهدة القسم الثاني في هذه الصالة وهو الخاص بمجهود الأقسام الفنية في وزارة الزراعة التي يقضي الفنيون فيها زهرة العمر وسني الشباب في العمل المضني سنوات طويلة في صمت وسكون حتى يتمكنوا من الوصول بالطريقة العلمية الصحيحة التي لا يمكن بطريقة غيرها أن نحصل على أنواع جديدة من المحصولات تزيد الانتاج العام حقّـا وتفيد مصر والمصريين .

وحسبي دليلاً على هذا أن المشاهد حين ينتهي من هذه الصالة يجد في ركن منها معروضات قسم الاحصاء بوزارة الزراعة ومنه يتبين مركزنا الصحيح ومستوانا في الانتاج وحاجة مصر الى العناية بالزراعة والعمل على رفع مستواها ومستوى العامل والفلاح . لأن النتيجة التي توضحها البيانات تدل على خلاف مظاهر معروضات كبار العارضين الذين لو كان مستوى الزراعة بمصر بمثل ما يعرضون لكانت الأولى في كل انتاج زراعي .

ولكن لي نقداً يتعلق بهذا القسم هو أنه في اللوحات الخاصة بالصادرات والواردات عُملت وحدة هي عبارة عن عملة نقدية تمثل قيمة ما يصدر أو يستورد إلاَّ أنه في اللوحة الخاصة بالصادرات حُددت بعشرة آلاف جنيه . وفي الواردات حددت بمائة ألف جنيه مما يدعو الى تضليل الزائر غير المدقق ، إذ يرى زيادة الوحدات في لوحة الصادرات عنها في لوحة الواردات مما يجعل الزائر يظن أن مصر في مركز قوي بالنسبة لزيادة صادراتها الزراعية عن وارداتها . وليس عيباً أن نقرر أن لدينا نقصاً في بعض السلع وأنه من المهم أن

نعمل على زيادة انتاجها في مصر وتحسين مستوى الموجود منها فعلاً وبذلك نسير كأية أمة ناهضة نحو استكمال ما لدينا من نقص بدل أن نسير وحالتنا حال التعاسة .

هذا وهناك أيضاً رسم يبين مقدار ما يوضع في الفدان من الأسمدة في مصر، وفي بعض الدول ، ومنه يتضح أن مصر ثالثة دول العالم من ناحية كثرة استعمال الأسمدة الصناعية، وهذا أمر لا يدعو الى الفخر بل يدل على أن في مصر نقصاً كبيراً في انتاج الأسمدة العضوية التي تفتقر اليها التربة المصرية والتي بها يستمر خصب أرض وادي النيل الذي اشتهر منذ القدم بالقوة وأخذ يتدهور منذ أن ابتدأت مصر في ادخال نظام الري بالمشروعات وارتفاع مستوى الماء في الأرض نتيجة كثرة الري بالراحة . ويرجع هذا النقص الى عدم الاهتمام بتربية المواشي فاذا علم أيضاً أن جميع الأسمدة الصناعية على كثرتها مستورد من الخارج لمسنا مقدار ما ينتاب الاقتصاد المصري من خروج ثمن هذه الأسمدة الى البلاد الأخرى، ويبين حاجتنا الشديدة الى انتاج الأسمدة محلياً ، الأمر الذي أخذ بعض الممولين المصريين يتجهون اليه . ونرجو أن يكتب لهم التوفيق في انتاج هذه السلع بحيث تسد حاجة مصر من الأسمدة وبأثمان تخفف بعض التكاليف على المحاصيل الناتجة حتى يستهلكها المصريون بأثمان معقولة وليمكن تصدير الفائض منها الى الأسواق العالمية .

***

فاذا قصدنا السراي الكبرى وجدنا أن بها أقساماً متنافرة الهدف فبينما نرى على اليمين مصلحة سكة الحديد، نجد على اليسار المطبعة الأميرية وكلية الزراعة والخاصة الملكية . وفي الدور العلوي نجد مصلحة الأملاك والأوقاف مع مصلحة التليفونات. وهذا يوجه تفكيرنا الى عيب أساسي في تنظيم المعروضات وتوحيد ما يخص كل فرع من نواحي النشاط الاقتصادي كالزراعة مثلاً أو الصناعة مما لم يتحقق إذ وزعت أوجه النشاط الواحد في عدد من الأبنية وفي تباعدها تشتيت لذهن المشاهد فلا يدعه يركز تفكيره في ناحية واحدة ليتسنى له المقارنة والتفضيل بين ما يراه من نشاط الجهات المختلفة .

نعود الى المعروضات فنجد أن بعض النماذج التي وضعت صنعت من الشمع ولونت بألوان زاهية لا تتفق مع اللون الطبيعي وفي أحجام شاذة مما جعل بعض الزائرين يشك

في حقيقة ما تمثله وتعذر انتاج أشباهها .

وقد وجهت معروضات الخاصة الملكية النظر الى بعث صناعة الأخشاب الدقيقة والعناية بعمل النماذج المصغرة .

* * *

وقد أمكن لكلية الزراعة أن تضع معروضاتها في الاطار اللائق بمعهد علمي تنبعث منه أسس التفكير السليم والقواعد العلمية والفنيـة للاصلاح الزراعي ويمكن حصر الاتجاهات التي تدعو اليها الكلية في أربع نواح :

١ — تركيز الحاصلات الزراعية في مناطق تخصص في أنواع منها .

٢ — الاهتمام بتربية الحيوانات والدعوة للعناية بها .

٣ — القرية النموذجية التي تتركز فيها المباني والحدائق تستخدم فيها الآلات الزراعية بدلاً من العمال والعناية بوسائل النقل السريع .

٤ — الدعوة الى التفكير في تعديل الآلات الزراعية البلدية مما يوفر مجهود العامل والماشية ويزيد في عمل الآلة .

٥ — عرض كثير من نتائج البحوث العلمية والدعوة للاهتمام ببعض الصناعات المتعلقة بحفظ الفواكه والخضر والألبان .

ويكفي أن تقرر — أن معروضات كلية الزراعيـة قد اتسمت بحسن الذوق الفني في معرض هذا العام، إلاَّ أن فكرة القرية النموذجية في حاجة الى شرح طريقة التنفيذ وفق نظام حيازة الأراضي الحالي في مصر ، وهل سيكون تنفيذ ذلك على أساس النظام التعاوني أم هناك أسس أخرى ستتولى كلية الزراعة الدعوة إليها فيما بعد .

* * *

وفي طريق وادي النيـل تتشابه المعروضات وإن اختلفت المديريات . ولا أدري كيف تهتم كل مديرية بذكر عدد المدارس والمنتظمين فيها وعدد المستشفيات .. الخ . في الوقت الذي تقوم فيـه وزارة المعارف والصحة ومتحف الحضـارة وغيرها بمثل هـذا الأمر بأدق بيـان وأحسن تعبير . رأيت في مديرية أسـيوط « طاحونة » مصنوعة من البوص

وهي تدل على مقدرة صاحبها الفنية حقّاً ولكن لا قيمة لها من الوجهة العملية إلاَّ إذا قصد طحن الهواء ؟؟ . وهذا يوجه تفكيرنا إلى ضرورة تشجيع هؤلاء المبتكرين الفقراء . فقد تكون العبقرية مدفونة في أسمال الفقر والفاقة، ولا يمكن أن تكشف عن سرها إلا اذا تولتها يد الصقل والتهذيب وذلك بإيفاد أمثال هذا الصبي الى معاهد التعليم الفني ليستفيد ويفيد . أما المرور على الطاحونة والإعجاب بها ، ثم منحه شهادة من الجمعية الزراعية ببراعته فأمرٌ لا قيمة له في نظري لأنه لا يفيد مصر شيئاً .

* * *

وقبل أن نختم طوافنا بالقلم في معرض هذا العام نرى لزاماً علينا أن نذكر كلمة لا بد منها هي أننا لا نرى داعياً لأن يربط المعرض دورته بضم قسم للملاهي فلا علاقة بين رقينا الصناعي والزراعي وهذه الملاهي التي لا يدل إقبال الناس عليها إلاَّ على أننا قوم لا نحفل بالجد احتفالنا باللهو .

* * *

واذا كان لا بد من الترفيه عن زوَّار المعرض فليكن هذا الترفيه جديراً في ذاته بعيداً عن اللهو الذي لا يفيد والذي يحبب الناس في العبث

* * *

وختاماً نرى لزاماً علينا مرة أخرى أن نشكر القائمين بهذا المعرض فهو جامعة للعلوم والفنون حقّاً، ولكن مما يؤسف له أن هذه الجامعة ليس بها مدرسون يوجّهون روَّادها التوجيه الصحيح الى حقيقة ما يعرض أمامهم ، فهو يسير بتوجيه نفسه دون إرشاد أو تعريف ، وليست هذه من الأهداف التي تقام من أجلها أمثال هذه المعارض .

هلال الدبر الخطاب

# طوفان القدم

( تابع المنشور على الصفحة ٢٤٨ )

فقد أقام وسلي فكرته اللاَّهوتيـة في الجيولوجيا على القول بأنَّ الله القادر بعد أن أتمَّ الخلق، ألفى أن الارض وجميع المخلوقات « حسنة جدًّا » ، فذهب في موعظته التي تكلم فيها عن « سبب الزلازل واتّقائها» إلى انه ما من انسان يعتقد بصحة الكتب المقدسة ينكر أن ,, المعصية هي السبب الأدبي في حدوث الزلازل، مهما يكن من أسبابها الطبيعية ،، . ثم يقول ان الزلازل هي « نتيجة اللعنة التي نزلت بالارض من جراء الخطيئة الأصلية » ووصل بين ما قرره سفر التكوين وما قال به القديس بولس من أن ,, الخلق كله يئن ويتألم إلى الآن ،، ، فوجد في ذلك الوصل برهانًا قدسيًّا جديداً على أن الزلازل إنما هي نتيجة زلّـة آدم . ثم يقول في موعظته التي بعنوان : ,,اغتباط الله بأعماله،، انه ,,قبل معصية آدم لم يكن ليحدث في جوف الارض من هياج أو ثوران ، أو تقلصات عنيفة ، أوهزَّات أو رجَّات أو زلازل ، بل كانت ثابتة ثبات الأعمدة التي ترفع السماء . وعلى هذا لم يكن في الأرض انفجارات نارية ولا براكين ولا جبالٌ محترقة ،، .

فمن الطبيعي إذن أن علماً يثبت أن الزلازل قد ظلت تحدث خلال أجيال وعصور قبل أن يكون للإنسان أي أثر في هـذا السيار ، ويقرر فوق ذلك أن نفس هذه الزلازل التي يعتبرها هذا اللاَّهوتي لعنات ترتبت على زلة آدم ، إنما هي نعم وخيرات ، إذ أنها أحدثت تلك الصدوع التي يعثر الانسان فيها على العروق المعدنية اللازمة لقيام الحضارة الحديثة ، يكون ولا شبهة فوت إدراكه . وأين مقررات هذا العلم ، من اعتقاده بأن الزلازل « إنما هي أحكام الله العجيبة ، وانها النتيجة الصحيحة والعقاب العدل للخطيئة » ؟ .

على هذا أيضاً كان الرأي في الموت وفي الألم . فقد قطع في موعظته „ هبوط الانسان “ بأن الموت والألم إنما حلاّ بالعالم من جرّاء زلة آدم ، موقناً بأن الافتراس القائم اليوم بين صنوف الحيوان يعود كذلك إلى معصية آدم . وتكلم عن الطيور والوحوش والحشرات فقال بأنه قبل أن تنزل المعصية بالعالم وتحل به لعنتها ، „ لم يحاول واحد من هذه الأحياء أن يلتهم صاحبه أو يضره بصورة من الصور “ . وان „ العنكبوت كان وديعاً كالذبابة ، ولم يكن ليترقب دمها متلبثاً بها » . كذلك مضى وسْلي يحرض أتباعه على علم الجيولوجيا لأن هذا العلم قد أظهر من طريق البقايا الحفرية للحيوانات اللاّحمة ، أن الموت والألم قد حلاّ بهذه الأرض أحقاباً بعد أحقاب قبل ظهور الانسان . على ان فضلات الحيوانات الضعيفة التي عثر بها نصف مهضومة في معدات الحيوانات الحفرية الكبيرة ، قد حطّمت كل البراهين التي أقام عليها وسلي نظريته الكبرى .

ولقد اعتنق دكتور آدم كلارك فكرات مشابهة لهذه . فقد مضى موقناً بأن صنوف الشوك والقتاد قد بُرِئَت لتكون لعنة على الانسان فيكد ويكدح تبعاً لمعصية آدم ، وانها ظهرت في الارض أول مرة عقيب هبوطه ، وكذلك رتشارد واطسون ، وهو أخصب كتاب عهد الاصلاح الانجيلي ومؤلف „ النظامات “ وهي مثال المقالة اللاهوتية المؤيدة لوجهة النظر الانجيلية ، فانه قال في فصل عقدهِ عن „ المعصية “ ، وبخاصة الحيّة التي أغرت حوّاء : „ ليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن الحيوان قد لابسته الصورة الثعبانية بأيّ حال قبل ذلك الانقلاب الخلقي الخطير . وانه إذ مسخ فصار زاحفاً يمشي على بطنه ، فإن ذلك يدل على تغير كلّي ونقصان في الصورة الأصلية “ . أما ذلك التهايؤ الطبيعي المعظم الذي يصل بين الحية وبين بيئتها ، والذي هو موضع انبهار الطبيعيين ، فلم يكن عند

الوسليّين من رجال الدّين أكثر من شرّ نزل بمقتضى خطيئة آدم وحوّاء . وهنا أيضاً اضطرّ العلم الجيولوجي أن يواجه اللاهوت بأن يكشف عن آثار الحيّات الكبرى في العصر الفجري من العصور الجيولوجية ، تلك التي تقدمت ظهور الانسان بأحقاب متتالية .

كانت النتيجة المباشرة لهذه التعاليم صادرة عن أمثال هؤلاء الرجال ، أن تصدّ الكثيرين الذين لولا هؤلاء لعمدوا إلى المشاهدة والبحث العلمي ، وأن توجههم إلى الأخذ بالأساليب المدرسية القديمة . ومن ثمت أينعت ثانية طريقة حل ألغاز الكون بالكلام وبالعبارات المنمقة . في سنة ١٧٣٣ روّج دكتور تيودور أرنولد لنظرية „المُثُل“ موقناً بأن الحفريات إنما هي نتيجة „تماسك دقائق مادية حدث في حالة الخلق فأبدع الخالق نماذج للمخلوقات والاشياء فوق الارض وفي باطنها . وقد فاز كتاب „أرنولد“ بقبول شامل كامل .

***

على هذا كان تأثير هذه المنظومة من عظام اللاهوتيين ، حتى انه قرابة انتهاء القرن التاسع عشر ، كان المنابذون من الانجليز لعلم الجيولوجيا مستندين إلى القواعد الانجيلية ، كما لو انهم قد اكتسحوا كل شيء أمامهم . فإذا نظرنا في مجموع ما ورثناه من الأدب المقدس وقسناه بمقتضى قواعد النظر التاريخي ، نرى ان ذلك الأدب قد جزع كل الجزع من تلك الأخطار التي تنشأ مما يوحي به علم الجيولوجيا ، وبخاصة إذ يثبت أن الأرض أقدم عمراً بكثير من ستة آلاف السنة التي احتاج اليها „يوشر“ رئيس الأساقفة ، تفسيراً لنصوص العهد القديم . ولم يقتصر هذا الشعور بالجزع على رجال الكنيسة وحدهم . فإن „ولْيمْس“ وهو من مفكري

المدنيين ، قد قرر أن مثل هذه البحوث إنما تقود إلى الكفر والالحاد ، وانها بمثابة : " أن تنزل الله القادر وخالق الكون عن مكانته الحقة " . ولقد انضم الشاعر " كوبر " الى هذه البيئة ، فنظم في الاتجاه العلمي الجديد شعراً ، نبذه به ونفاه قال : " حرث بعضهم الارض الصلبة ، وبعضهم فجّرها ، ومن طبقاتها استخلصوا سجلاً نعرف منه أن " هو " الذي خلقها ، وأوحى بتاريخها إلى موسى ، كان مخطئاً في تقدير عمرها " .

> Some drill and bore
> The solid earth, and from the strata there
> Extract a register, by which we learn
> That He who made it, and revealad its date
> To Moses, was mistaken in its age;
>
> Cowper.

وأهاب " يوحنا هووارد " برجال انجلترا أن يعارضوا : " تلك المذاهب العلمية التي تحاول أن تصرف العقل العام عن كل علاقة له بالنصرانية » .

***

بالتهجم على العلم الجيولوجي من طريق العقيدة في خطيئة آدم ، استمرت الحملة من ناحية أخرى قائمة على تفسير النصوص الدينية تفسيراً حرفياً . كذلك اعتمد معارضو هذا العلم على تلك القشور الخرافية التي تتضمنها الكتب المقدسة واستمسكوا بها وأنزلوها من القيمة منزلة التعاليم الأدبية والحقائق الدينية المنبثة في تضاعيف تلك الكتب . ولقد كان لخرافة " الأيام الستة " ، بأمسياتها وإصباحاتها (١) ، والعبارات الواضحة المعينة لزمان حدوث كل جزء من أجزاء

---

(١) لدى القول وكان صباح وكان مساء يوماً ثانياً أو ثالثاً وهكذا .

الخليقة ، شأن خاص في مهاجمة العلم والنيل من حقائقه . ومن أجل أن يفوز اللاهوتيون بهذه الخرافات سليمة ، استعرت نار المعركة واشتد لظاها .

ولقد استمرَّت المعركة حامية الوطيس في انجلترا حتى زمان ليس بعيداً عن ذكريات رجال عاشوا في العقدين الأولين من القرن العشرين . وانها لمعركة تسلح فيها رجال اللاَّهوت بكل ما وصل إلى يدهم من عدَّة ، مصوبين قذائفهم نحو علم ناشىء ينير ما أظلم من نواحي العقل البشري ، حتى لَقد أصمُّوا بدويٍّ أسلحتهم آذان العالم المتمدين .

تلقاء الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانت الصيحة بالكفر والتدليس والتجديف والتهجم على كتاب الله ، سلاح رجال من الكنيسة مثل المحترم « ملن براون » و ” هنري كول “ وغيرهما ، يطعنون به علماء الجيولوجيا جميعاً وبغير استثناء ، ويرمون به باحثَيْن من خواص النصارى مثل دكتور ” بكلاند “ والأسقف ” كونيبير “ و ” باي سميث “ والاستاذ ” سدجويك “ .

* * *

أمّا السّلاح المفضل عند أهل الجمود وحزب الأرثوذكسية ، فكان اتهام الجيولوجيين بأنهم يتهجمون على الحق الإلهي . ولقد قالوا بأن علم الجيولوجيا موضوع محظور بحثه والتفقه فيه ، وحرَّموه على أنه « فن أسود » وأنه « خطرٌ ومنبوذ » وأنه مجال حرام ، وأنه سلاح جهنمي وأنه تحدٍّ ممقوت بشهادة الوحي .

ولما أنس رجال اللاهوت أن هذا الأسلوب لم ينجح في إرهاب أولئك الذين اشتغلوا بالعلم ، جنحوا إلى حركة أخرى شتيتة المناحي . وإذا شئنا أن لانذكر انجلترا ، فإن من أشد الأشياء تحقيراً للطبيعة البشرية أن نذكر تلك الأعمال المسفة ،

بل المحاكمات التي اتخذها أضيق النـاس عقولاً في أمريكا وسيلة للنيل من علماء النصرانية ، أمثال بنيامين سليمن وإدوارد هتشكوك ولويس أغاسيز

ولكن من واجبنا، ومما نغتبط به كل اغتباط ، أن نذكر هنا رجلاً عظيماً من نابهي علماء النصرانية ، مَجّد الدين وكرّم نفسه بأن قبل مقررات العلم واعتقد بها وآمن بموحياتها ، بالرغم من كل هذه الصرخات المدويات . هذا الرجل هو نيقولاس ويزمن الذي عرف فيما بعد باسم الكردينال ويزمن . فان سلوك هذا العمود الشامخ من أعمدة الكنيسة الرومانية ، كان على النقيض من سلوك أولئك الأفاكين من بروتستانت الانجليز ، الذين ملؤا الدنيا عويلاً وأفعموها صياحاً وتشهيراً .

* * *

وهنا ينبغي لنا أن نذكر أن معركة من أكثر المعارك لذة وتسلية قد حدثت في «نيو انجلند» فان الأستاذ استيوارت "من كلية أندوفر" وكان قد كُرِّم وارتفع شأنه باعتباره دارساً متعمقاً في العبرانيات ، قد مضى يقول بأن الكلام في ستة أحقاب متطاولة تمّ فيها الخلق ، قذفٌ في الكتب المقدسة ، وأن سفر التكوين إنما يذكر ستة أيام ، كل منها مساء وصباح ، لا ستة دهور ..

فأجابه الأستاذ "جيمس كنجسلي" من كلية "يل" في مقال امتاز بعُمق الفكرة ورقة الحاشية ، بأن سفر التكوين يذكر بوضوح ودقة أن السماء جسم صلب ، كما يذكر ستة أيام عادية . فاذا كان الأستاذ "استيوارت" قد استطاع أن يتخطى إحدى الصعوبتين ويؤمن بنظرية كوبرنيكوس ، فانه في مستطاعه

كذلك أن يتخطى الثانية ويؤمن بحقائق الجيولوجيا . وكانت المعركة سريعة فاصلة ، انتصر فيها العلم .

* * *

ربما كان الأسقف "كوكبرن" هو صاحب أروع محاولة لصد علم الجيولوجيا عن المضي في سبيله المحتوم . فقد نزع إلى أساليب أهل اللاهوت في القرن الثامن عشر ، فعمل على أن يكتسح مؤيدي هذا العلم في الميدان . ولم يكن له من معرفة ثابتة بذلك العلم ، فصب عليهم قذائف من الوقاحة والشتم ، واتخذ المنابر والصحف والكتب الخاصة أداة لها . ومن فوق المنبر في "يورك منستر" امتهن "ماري سومرفيل" بالذات من أجل دراساتها العميقة في الجغرافيا الطبيعية ، تلك الدراسات التي مجدت اسمها في أنحاء العالم كله .

ولكن سخطه الأعظم قد انصب على "الجمعية البريطانية لتقدم العلوم" فقد نشر رسالة هاجمها فيها ، طبعت خمس مرات في خلال عامين ، وأرسل إلى رئيسها كتباً بالتهديد والوعيد والانذار ، وانتحى أساليب جعلت الحياة سعيراً على أمثال سدجويك وبوكلاند ، وغيرهما من أعلام الباحثين ، الذين عملوا على إذاعة الحقائق الجيولوجية كما اهتدوا اليها .

* * *

سرعان ما اتضح أن هذه الأسلحة مفلولة قليلة الجدوى . كانت أشبه بالأجراس الصينية ، إزاء المدافع الكبيرة . فمضى العمل العلمي بخطى وئيدة متزنة .

اسماعيل مظهر

# باب الأخبار العلمية

## أعظم المخترعات في سنة ١٩٤٨

سئل عالم أمريكي ، رأيه في أعظم مخترعات سنة ١٩٤٨ فسردها كما يلي : —

أولاً — استنباط الدقائق الذرّية المسماة «ميزونات» (١) وهي التي قد تحل معضلة المادة

ثانياً — تمكن الطائرات اللامروحية (٢) ذوات الدفع الغازي ، من الطيران بسرعة تفوقها في الصوت ، اذ أنها فتحت عصراً جديداً من عصور الهواء .

ثالثاً — اثبات كون تناول حبة واحدة من حبوب البنيسيلين (٣) ، عقب تعرض ، متناولها للاصابة بداء السيلان ببضع ساعات ، يكفي لوقايته من ذلك المرض العضال

رابعاً — تركيب الجليسرين صناعياً من النفط ( الزيت المعدني ) وبذلك أصبح ميسوراً استخراجه تجارياً مستقلاً عن المواد الدهنية .

خامساً — اكتشاف الأوريومايسين والپوليمكسين — وهما دواءان ناجعان لعلاج الأدواء التي تعجز عن شفائها مركبات السلفا وغيرها .

سادساً — اتمام اختراع المقراب — التليسكوب — البالغ قطر مرآته ٢٠٠ قيراط وانجاز تركيبه (٤) في مقره . وهو أكبر أنواعه في العالم بأسره ، إذ يستطيع رؤية أعلى الطبقات الجوية العالمية التي لم يظفر بكشفها أي راصد كان ، فيما غبر من الزمان

سابعاً — الترخيص رسمياً لجهازين من محطات الذرّة ، في انتاج قذائف ذرّية تنافس الأشعة الكونية .

ثامناً — انتاج مطاط صناعي (٥) . تجاري أصلح من المطاط الطبيعي في مزاياه الكيميائية .

---

(١) المزون أو الميزوترون — دقيقة من دقائق المادة ، غير ثابتة ، تحمل شحنة كهربية سلبية . ووزنها يعادله في الكهيرب ٢٠٠ مرة . ويعتقد العلماء أنها ثمرة من ثمار تحلل الاشعة الكونية . وتسمى أيضاً باريترون .

(٢) وصفت هذه الطائرات في مقال مسهب نشر في مقتطف يوليو سنة ١٩٤٧ .

(٣) وصفت هذه الاقراص ومنافعها في مقتطف ابريل سنة ١٩٤٧

(٤) ذكرت جريدة المقطم في ١٩٤٨/٦/٤ — في برقياتها — بعنوان أكبر مرصد في العالم — مونت بلومار — في ٤ / ٦ / ٤٨ احتفل أمس بافتتاح أكبر مرصد في العالم بحضور عدد كبير من العلماء . ويبلغ قطر عاكس الضوء فيه ستة أمتار . وسيوضع على قمة جبل بالومار . وتكلم بهذه المناسبة كثيرون من الخطباء فأبانوا أن نظارة المرصد الجديدة تتيح معرفة هل كان كوكب المريخ مسكوناً . أو غير مسكون

(٥) وصفت المطاط الصناعي وذلك في باب الأخبار العلمية بمقتطف يوليو سنة ١٩٤٢

تاسعاً — اكتشاف القمر الخامس من أقمار السيار أورانوس[1]، ومداره حول مركز جاذبيته ٣٠ ساعة .

عاشراً — استخدام النيوترونات لاكتشاف أسرار المادة، عن طريق نماذج الصور الفوتوغرافية الخاصة بانعطاف الضوء

## علاج داء السيلان بحبة واحدة من البنيسيلين

ثبت حديثاً كون داء السيلان يُتاح توقيه، ببلع حبة واحدة من البنيسيلين (كما تقدم القول في النبذة الأولى) وذلك عقب تعرض المصاب للاصابة به ببضع ساعات . كما جاء في تقرير قدّمه الى المختصين، الدكتور هاري إيجل الطبيب في المعهد الأهلي الصحي التابع لوزارة صحة الولايات المتحدة الأمريكية، قال فيه إن هذا العلاج العفني المشهور قد ثبتت قوته من قبل في شفاء إصابات السيلان . فأصبح ميسوراً كسر شوكة عدواها المتتابعة وذلك بهذه الوسيلة الوقائية الهينة، التي ستفضي بعد حين الى استئصال شأفة هذا المرض، وقد أيّد هذا التقرير خمسة آخرون من أطباء وزارة البحرية الأمريكية إذ قالوا إن الحبوب التي استعملت لهذا الغرض كانت من الأقراص المعتادة المرموز لها بحرف ج . G التي تؤخذ عن طريق الفم بموجب الوصفات التي يكتبها الأطباء لأولئك المرضى على أن يتناولها المصاب بعد ساعتين من استهدافه للداء .

أما إذا أخذ يتناولها عقب فترة تتفاوت بين ١٢ ساعة و ١٨ ساعة من الاصابة كان لزاماً عليه بلع حبتين، مرة واحدة كل ست ساعات . ولكن ليس لهذا العلاج زمن محدد .

## تنظيف الشرايين المسدودة

قدم الدكتور لويس بازي كبير جراحي مستشفى سانت لويز في باريس تقريراً الى المؤتمر الاكلينيكي السنوي الذي عقدته كلية الجراحين الأمريكيين وذلك في شأن جراحة جريئة سوف تكون مصدراً لأحداث انقلاب أساسي عظيم في الجراحة، هو ترميم الشرايين البشرية التي تنسدُّ بتأثير الأمراض أو الاصابات المختلفة . وتتضمن هذه الطريقة الفنية فتح الشريان فتحة يبلغ طولها قدمين وكشط المادة التي تعوق سير الدم فيه . ثم إغلاقه وتركه حتى يشفى بنفسه . وتدل هذه المقدمة العلاجية على كونها ستصير يوماً ما

---

[1] أورانوس — كوكب سيار من المجموعة الشمسية، هو سابعها في البعد عن الشمس . وتبلغ أقرب مسافة بينهما ١٧٨١مليون ميل . وقطره ٣١٠٠٠ ميل . وله أربعة أقمار أي نجيمات تدور حوله .

نعمة للانسانية، إذ يعالج بها المصابون بداء تصلب الشرايين، لأن الأطباء كانوا عادة يخشون عاقبة نزع المحتويات الداخلية التي في أجواف العروق، معتقدين أن ازالتها تزيد الشرايين انسداداً، فثبت من الجراحات المائة التي قام بها هذا الطبيب الفرنسي المجرّب، في السنة الماضية، أنّ هاتيك المشتملات حينما تزال، تحل محلها طبيعيًا الكريات الدموية البيض، وذلك عقب عودة الدورة الدموية الى حالتها الطبيعية الأصلية في جسم المصاب الكهل أو الشيخ. وقد ظهر تحسين جليّ في الدورة الدموية في ٦٥ إصابة من مائة الحالة التي عالجها الطبيب المشار اليه.

## الكابوك في المعرض الزراعي الصناعي السادس عشر

قرأت أول مرة، في شبابي، وصف هذا النبات الظريف، وذلك في إحدى المجلات الانكليزية العلمية المؤرخة في ٢٧ يوليو سنة ١٩١٥ ثم كتبت فيه نبذة نشرتها في باب الأخبار العلمية بمقتطف يناير سنة ١٩٤٣. وما كنت لأتوقع أن استمتع ذات يوم بمشاهدته مزروعاً في بلادنا، لذلك كان دهشي عظيماً واغتباطي جزيلاً إذ رأيت هذا النبات العجيب في جناح معروضات مزارع انشاص التابعة للخاصة الملكية حيث أبصرت نموذجاً منه معروضاً في صندوق زجاجي مغلق، وذلك في الطابق السفلي من السراي الكبرى بالمعرض الزراعي الصناعي الحالي. فآثرت أن أكتب عليه الفذلكة الآتية:—

الكابوك K pok أو الكايبوك اسم غريب لمادة تحشى بها الحشايا «المراتب» والمناطق التي يتمنطق بها الناس وقاية من الغرق، والوسائد «المخدات» والنمارق، وتبطن بها الملابس، وتصنع منها الأشعرة «الملابس الداخلية». وهو صنف من الزغب الحريري، يشبه القطن. بيد أنه يتميز عنه بكثير من المزايا. فضلاً عن كونه يكاد ينافس الصوف وهو مشتملاتُ لوز بزور أنواعٍ معينة من أشجار الفصيلة النباتية المسماة بومبا كسيا المعروفة بأشجار القطن الحريري، التي تزرع في جزائر جاوى والفيليبين والانتيلا وبلاد البرازيل والهند وسائر الأقاليم الحارة. وكما ان القطن ينتج من بزور نبات القطن، كذلك يتولد الكابوك من الجدران الداخلية للوز نبات الكابوك. وهو كمية من شعر نباتي دقيق ناعم متلبد بعضه مع بعض. وطول كل شعرة منها يتفاوت بين ثلث قيراط «بوصة» وقيراط كامل. وتختلف ثخانتها بين $\frac{١}{١٠٠٠}$ و $\frac{٥}{١٠٠}$ من القيراط. وتزن الياردة المكعبة من الكابوك، اذا أحكم كبسها، عشرين رطلاً انكليزيًا.

ثمّ إن الميزة التي تجعله نافعاً جدًّا، هي

مقاومته المفرطة للحرارة، إذ هو من أقوى المواد المشهورة، غير الموصلة لها. ويقال إنه أشد «دفئاً» من الصوف وأخف منه ست مرات، بحيث أن المعطف الذي يصنع من نسيج الكابوك يكون خفيفاً جداً. ومع ذلك فإنه يقي لابسه البرد إذ يحول دون نفوذه الى بدنه كما يمنع إفلات الحرارة من جسده أيضاً. وترجع هاتان الخاصيتان، الى كثرة وجود الهواء في هاتيك الألياف. وهذه الميزة هي، مصدر كون الكابوك أنفع مادة لصنع الحصر والمناطق الواقية من الغرق. إذ يستطيع وهو في الماء العذب حمل ثقل يعادل وزنه ١٧٥ مرة. لذلك ترى المرء الذي يرتدي صُدْرة «صديريًّا» من نسيج الكابوك، يطفو كالفلين على سطح الماء، حيث لا يعتري رداءه التلف، أيًّا كانت درجة تشبعه بالماء. لأن الماء لا يمكنه إبلاء شعور الكابوك الخالية من مادة البروتوبلازم (المادّة التي تتكوّن منها خلايا الأجسام الحيّة) إذ هي غلافات سليولوزية ناعمة غير صالحة لغذاء الميكروبات ولا تؤذيها الهوام.

## البوليمكسين

هي مادة كيميائية تتولد من البكتيريا التي توجد في التربة والماء. وقد تمّ تركيبها حديثاً لإبادة الجراثيم. وثبت كونها أقوى من الاسترمبتومايسين. وذلك في علاج بعض الأمراض الجلدية وتحل محل الاسترمبتومايسين في معالجة بعض الأمراض الشديدة. ومن الأدواء التي يمكن علاجها بهذه المادة الكيميائية الجديدة، الطاعون وحمّى مالطة وأنواع معينة من الالتهاب السحائي والحمى التيفودية وتسمم الدم وغيرها من الأسقام.

عوضه جندي

## عقار جديد للقضاء على الجراثيم

أُجريت في كلية الأطباء والجراحين بجامعة كولمبيا بمدينة نيويورك تجارب بنوع جديد من عقاقير السلفا أُطلق عليه تجاريًّا اسم دارفيزول (Darvisul) وقد أسفرت التجارب عن نجاح في وقف انتشار سم الفيروس (Polio Virus) في أجسام الفيران. ومع أن العلماء الأمريكيين المشتركين في مكافحة مرض شلل الأطفال يحرصون على أن يقولوا أن العقار الجديد يجب أن تجري به تجارب كبيرة فإنهم يؤكدون أنه أول عقار يستطيع اختراق الخلايا التي تدخل فيها الجراثيم ويحصنها ضدها بحيث تتلاشى. ومما يذكر أن إسم الفيروس يؤدي في حالة شلل الأطفال الى وفاة أو تكسيح مئات من المصابين به في كل سنة.

وقد لوحظ أن لتأثير دارفيزول ثلاث نواح كما جاء في بيان أصدرته جامعة كولمبيا فأولاً ، أدّى هـذا العقار الى شفاء الفيران من مرض التهاب المادّة السنجابية في الحبل الشوكي . وثانياً ، أصبحت للفيران التي شفيت مناعة ضد الإصابة بالمرض مرة أخرى ، وثالثاً انه عند ما أعطيت جرعة واحدة منه منع الإصابة . وقد اتضح أن لدارفيزول مفعولاً يفسد مفعول مائة جرعة مهلكة من جرعات سم الفيروس الذي يصيب الفيران عند ما تحقن بعد مضي أربع وعشرين ساعة من ادخال الفيروس في أجسامها . وقد ماتت جميع فيران الفئة غير المحصنة من جرعات صغيرة جداً . ومن ناحية أخرى من نواحي الدراسة وجد أن جرعة واحدة من دارفيزول أنقذت حياة ٥٠ ٪ من الفيران التي أصيبت بسم الفيروس بعد ادخاله في أجسامها بست أو سبع ساعات .

وتجري الآن تجارب بدارفيزول على القردة المصابة بما يشبه شلل الأجسام البشرية وتجري تجارب أولية لمعرفة تأثير العقار على الكائنات البشرية ، ويقوم بها الباحثون في خمس من المستشفيات والجامعات . ومن أجل هذه التجارب حذّر الدكتور مري ساندرز ، أحد أساتذة جامعة كولمبيا ، من التمادي في التفاؤل أو التشاؤم بشأن عقار دارفيزول .

ومما قاله : لا نعرف مدى تأثير دارفيزول على مرضى التهاب المادة السنجابية في الحبل الشوكي للكائنات البشرية . ولكن ثبت في المعامل ان العقار سيكون له شأن يذكر في مكافحة الفيروس . ومن جهة أخرى لا يوجد ما يبرّر ما يزعمه البعض من أنه ناجع في شفاء ذلك المرض . ولا يمكن أن يذاع أي بيان عنه إلا بعد التحقيق من أن مفعوله سيكون ناجعاً .

ومع ذلك ذكر الدكتور ساندرز ان دارفيزول هو أول مادة كيميائية عرف أنها توقف انتشار سم فيروس من أي نوع . والمعروف أن الفيروس واحد من أنواع الكائنات الحية الثلاثة التي تسبب المرض في معظم الحالات . أما البكتريا والريكتسيا فهما النوعان الآخران . وكانت مكافحة جراثيم الفيروس وما زالت أصعب من مكافحة النوعين الآخرين لأنها تكمن بين الخلايا الحية وغير الحية وتتكاثر كالكائنات الحية ولكن مفعولها كمفعول مادة كيميائية .

وغني عن القول ان اكتشاف عقار له قوة القضاء على جراثيم الفيروس التي لم يتوصل العلماء الى الآن الى طريقة للقضاء عليها يمهد السبيل للانسان للتغلب على هذه الجراثيم نهائياً . وربما ساعدت المواد الكيميائية التي تقضي على الفيروس على ضمان شفاء المرضى بالأنفلونزا والحمى الصفراء والتهاب الدماغ وغير ذلك من الأمراض التي تسببها جراثيم الفيروس

ونظراً لنجاح التجارب التي أجريت بمادة دارفيزول على الفيران للقضاء على جراثيم الفيروس ينتظر أن يكون له مفعول قوي بالنسبة لجميع الأمراض التي تسببها هذه الجراثيم . وأوضح الدكتور ساندرز ان مفعول العقار لا يصل مباشرةً الى جراثيم الفيروس الكامنة في جسم الفار بل يصل الى خلايا الأنسجة . وأضاف الى ذلك قوله :

ان هذه النتيجة تدل على أن المركب الكيميائي يستطيع تغيير فسيولوجيا الخلية بدون إبادتها ويجعلها في الوقت نفسه مكاناً غير صالح لتكاثر جراثيم الفيروس . ولم يحدث حتى الآن أن اكتشف عقار يستطيع اختراق الخلايا التي تدخل فيها الجراثيم ويحصنها ضده في حين أنها المركز الرئيسي الذي تنفث فيه جراثيم الفيروس سمومها .

وقد أعدَّت الجامعة تقريراً وصفت فيه البحوث التي قام بها الكيميائيون الصناعيون في الولايات المتحدة لمكافحة جراثيم الفيروس وأدَّت الى انتاج عقَّار دارفيزول . وقد استعمله الدكتور ساندرز في تجارب استغرقت ما يقرب من سنة على اكثر من ١٢ر٠٠٠ فأر .

## بحرية الولايات المتحدة

### تتعاقد على صنع منطاد ضخم

تعاقدت البحرية الأمريكية مع شركة جوديير لصناعة الطائرات على صنع منطاد أخف من الهواء ولم يسبق أن صنع مثيل له من حيث الضخامة .

وسيبلغ حجم المنطاد الجديد ما يقرب من ضعف حجم أي منطاد استخدمته البحرية لمكافحة الغواصات في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهو يستطيع الطواف فوق البحار الى مسافات بعيدة ، ومن مواصفاته أن طوله ٣٢٤ قدماً وعرضه ٧١ قدماً وارتفاعه في أعلى نقطة ٩٢ قدماً وستكون فيه أمكنة لاستراحة الضباط والجنود .

وسيكون له محركان من طراز «رايت سايكلون» قوة الواحد منهما ثمانمائة حصان ، ولن يستطاع اصلاح المحركين في حالة الطيران .

* * *

ورؤي أن يعمل فى المنطاد الجديد أربعة عشر ضابطاً وجندياً ، على أن يعمل فريق منهم ويستريح الفريق الآخر في مكان بعيد عن المحركين والدفة . وستعد به صالة وغرفة للمائدة مزوَّدتين بموقد كهربائي للطبخ وثلاَّجة وستكون لكل محرّك مروحة قطرها ثمانية عشر قدماً ومتصلة بالمحرّك بوساطة جسر ومثبتة على شخطورة المنطاد. أما جهاز الحركة فسيصنع بحيث تدير المحرك.

الواحد مروحة واحدة ، وكلتا المروحتين .

وهناك تغيير في التصميم العادي للمنطاد تدل عليه وجود ثلاث عجلات لها تروس للهبوط وسيحتاط في صنع عجلتي القيادة بحيث تكونان متصلتان لكي يتسنى للقائد أو مساعده أو كلاهما استعمالها بسهولة في وقت واحد .

أما الغلاف الخارجي للمنطاد فيصنع من منسوج صقيل مغطى بالمطاط الصناعي وهي طريقة جديدة لصنع غلاف المنطاد الذي يقل وزنه عن وزن الهواء . وسيستوعب المنطاد الجديد ٨٢٥ر٠٠٠ قدم مكعب من غاز الهليوم .

## تحضير حامض التانين صناعياً

توصل الكيميائيون الامريكيون الى تحضير حامض التانين صناعياً لدبغ الجلود الثقيلة . وقد أثبتت التجارب التجارية ضيقة النطاق التي أجريت به صلاحيته فيما يتعلق بالتكاليف وجودة الجلود المدبوغة به . ولم يتم تحضير حامض التانين صناعياً إلا بعد بحوث استغرقت عدة سنوات ودعت إليها الحاجة الى ايجاد بديل عن حامض التانين الذي يستخرج من الخضروات نظراً لأن الكميات التي يمكن تحضيرها محلياً تناقص باستمرار . وهو يستخرج عادةً من شجرة أبي فروة التي كادت تعدم صلاحيتها تجارياً بفعل الآفات الزراعية ، وتحتاج الولايات المتحدة لكميات من حامض التانين اللازم لدبغ جلود الأحذية قدرها ٣٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ رطل أي ما يساوي ١٣٦ر٠٠٠ر٠٠٠ كيلو جرام .

***

ومما يذكر أن هذه المادة الكيميائية الجديدة هي أول حامض تانين صناعي حضر في الولايات المتحدة بتكاليف توازي تكاليف حامض التانين الطبيعي الذي يحضر محلياً أو يستورد . أما فيما يختص بتركيبه الكيميائي فهو «دايالديهايد» أي أنه مركب من الكربون والهيدروجين والاوكسجين وهو بمثابة حلقة اتصال بين بروتين جلد الحيوان ومادة القلفونية وهما بامتزاجهما يحيلان الجلد غير المدبوغ القابل للتلف الى جلد مدبوغ يبقى سليماً على الرغم من مرور الوقت . وقد دلت التجارب على أن العملية الجديدة تستغرق أقل من نصف الوقت اللازم لدبغ الجلود بالطريقة المألوفة .

وينتظر أن يعم استعمال حامض التانين الصناعي الذي ابتكره المستر وينهايم ، من كيميائيي شركة بلانتري الكيميائية بمدينة سنت لويس بولاية ميسوري ، بالتعاون مع المستر ادوارد دوهيرتي من كيميائيي شركة بونا الين بمدينة بوفورد بولاية جورجيا . وقد وصف الجلد المدبوغ به بأنه ذو لون فاتح يميل الى لون الزبدة ، كما أنه ناعم الى الدرجة التي يريدها الدباغون والذين يستعملون المصنوعات منه .

# فهرس الجزء الرابع

## من المجلد الرابع عشر بعد المئة من المقتطف

٢٤١ طوفان القدم : صراع بين اللاهوت والعلم : اسماعيل مظهر
٢٤٩ نظرات في النفس والحياة : نظرات جورج أليوت سويفت : ع . ش
٢٥٨ أشجان (قصيدة) : حامي أبو النجا
٢٦٠ تطور الآراء الاجتماعية والسياسية الحديثة : لويلز — تعريب فؤاد طرزي
٢٦٨ اليك (قصيدة) : مختار الوكيل
٢٧٠ سلامة موسى : دعامة قوية من دعائم الفكر العربي : وديع فلسطين
٢٧٣ أريد زوجاً أعبده (قصة) : نقولا الحداد
٢٨٢ قلبي ( قصيدة ) : عدنان الذهبي
٢٨٣ ستيفن ليكوك — سيرة حياته بقلمه : مبارك ابراهيم
٢٩٦ شهيد السلام : رثاء غاندي (قصيدة) : عبد السلام رستم
٢٩٨ على هامش المعرض الزراعي الصناعي السادس عشر : هلال السيد الحطاب

٣١٣ باب الاخبار العلمية ٭ أعظم المخترعات في سنة ١٩٤٨ . علاج داء السيلان بحبة واحدة من البنيسيلين . تنظيف الشرايين المسدودة . الكابوك في المعرض الزراعي الصناعي السادس عشر . البوليميكسين : عرض جندي — عقار جديد للقضاء على الجراثيم . بحرية الولايات المتحدة تتعاقد على صنع منطاد ضخم . تحضير حامض التانين صناعياً .

## لحق المقتطف

١ — ٤٨ نظرية النسبية لألبرت انشتين : بقلم محمد عبد الرحمن مرحبا